دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

العذراء القديسة مريم
"ثيئوتوكس"
Θεοτοκος

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

دراسات في التقليد الكنسي
الكتاب الثالث

العذراء القديسة مريم

«الثيئوتوكس»
Θεοτοκος

الأب متى المسكين



(إيقونة للعذراء والدة الإله، يرجع تاريخها إلى القرن السادس أو القرن السابع الميلادي، وجدت في دير باويط بصعيد مصر)

كتاب: العذراء القديسة مريم «الثيئوتوكس»

الحلقة الثالثة من سلسلة دراسات في التقليد الكنسي

المؤلف: الأب متى المسكين

الطبعة الأولى: سنة ١٩٦٧

الطبعة الثانية: سنة ١٩٧٩

الطبعة الثالثة: سنة ١٩٩٣

مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.

ص . ب: ٢٧٨٠ القاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٣/٨٨٢٤

رقم الإيداع الدولي: **I. S. B. N**

977 - 240 - 047 - 2

محتويات الكتاب

مقدمة

حينما انعقد المجمع المسكوني الثالث في أفسس سنة ٤٣١م والذي ترأسه كيرلس الكبير بابا الإسكندرية المدعو عمود الدين، (وذلك لتثبيت الإيمان المسيحي الأرثوذكسي فيما يختص باتحاد الطبيعة البشرية مع الطبيعة الإلهية في شخص ربنا يسوع المسيح اتحاداً كاملاً كلياً غير مفترق ولا منقسم، أي وحدة كاملة مطلقة في الطبيعة والأقنوم؛ وذلك رداً على نسطور أسقف القسطنطينية الذي نادى بانفصال الطبيعتين وبالتالي انفصال الأقنومين، واحدٌ إلهيٌ يسكن في آخر بشري في شخص يسوع المسيح)، كان حجر المحك في هذا النزاع اللاهوتي الخطير الذي فضح انحراف نسطور، هو محاولة تطبيق هذه البدعة على العلاقة التي تربط العذراء القديسة مريم بشخص المسيح؛ إذ صمَّم نسطور أن العذراء تكون بذلك والدة للأقنوم الجسدي ذي الطبيعة الجسدية فقط ولا علاقة لها بالأقنوم الإلهي ذي الطبيعة الإلهية ... فسمَّاها «والدة المسيح» و «والدة الإنسان». ولم يتضع نسطور كما اتضع ابن الله، فلم يحتمل بتصوُّره الضعيف أن يطلق على العذراء «والدة الإله»، معتبراً استحالة ولادة الإله من امرأة استحالة قاطعة، مع تشبُّث جنوني أن الله لا يمكن أن يُولد من امرأة. مع أن بولس الرسول ذكرها بوضوح قائلاً: «ولكن لمَّا جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة.» (غل ٤:٤)

وقد شرح إمكانية هذه الولادة في موضع آخر بقوله: «أخلى نفسه آخذاً صورة عبد.» (في ٢:٧)

وبهذا يكون بولس الرسول قد رفع كل الغموض والاستحالة في إمكانية ولادة الله (في الزمن)، وكشف سر هذا التواضع الخطير من جانب ابن الله الذي أجراه في ذاته مرتضياً أن يُحمل به في بطن العذراء ويُولد منها كطفل، هذا السر العجيب هو معجزة التجسُّد الأساسية وإحدى صفات الألوهة المدهشة التي كانت مخفية عنّا، أي سر تواضع الله المعروف بالتعبير اللاهوتي «بالإخلاء κενωσις»، أي قدرة الله على إخلاء ذاته من مجد الألوهة في تواضع فائق لإمكانية الظهور للإنسان بأية صورة مبسطة.

«أخلى نفسه آخذاً صورة عبد» ...

وقد تصدَّى القديس كيرلس الكبير لهذا الانحراف في الإيمان، مؤكداً أن تلقيب العذراء القديسة مريم بوالدة الإله ضرورة لاهوتية تُحتمها حقيقة التجسُّد الإلهي فالتجسُّد في الإيمان الأرثوذكسي هو اتحاد كامل بين الطبيعتين، غير مفترق قط من بعد الاتحاد، لأقنوم واحد هو الإله الخالق ابن الله المتجسِّد، فالمولود من العذراء هو ابن الله المتجسِّد وليس مجرد إنسان.

إذاً، لا يوجد ابنان، ابن لله وابن للعذراء، بل ابن واحد هو «ابن الله» الذي لمَّا تجسَّد صار أيضاً «ابن الإنسان»، دون أن يفقد شيئاً من شخصيته الإلهية على الإطلاق.

ونحن لو سألنا أي مؤمن مسيحي بسيط بناء على قول بولس الرسول: «أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة» عن ماذا يمكن أن نُسمِّي هذه المرأة التي وَلَدَت ابن الله؟ فماذا يكون الجواب إلاَّ أنها تُدعى **«أُم ابن الله»**؟ أي أُم ووالدة الأقنوم الثاني.

ولم يكن القديس كيرلس الكبير هو أول مَن استخدم هذا الاصطلاح اللاهوتي، فهو ضمن التراث الكنسي منذ القرن الثاني الميلادي، وقد استخدمه العالِم والكاتب

الكنسي المشهور هيبوليتس، كما كان أيضاً ضمن الحقائق التي تُعلَّم بها مدرسة الإسكندرية منذ القرن الثاني أيضاً.

ولكن لو عدنا للإنجيل نفسه بصفته الوثيقة العظمى للتقليد الكنسي، نجد أن أول مَن نطق بتسمية العذراء «بوالدة الإله» أو «أُم ابن الله» هو الملاك جبرائيل الذي حمل البشرى الأُولى للعذراء بالحمل الإلهي والولادة المقدَّسة، إذ قال لها: «فلذلك أيضاً القدوس **المولود منك يُدعى ابن الله**» (لو ١:٣٥)، وهذا يسجل أول تصريح إلهي أن العذراء هي «والدة القدوس ابن الله».

كذلك لو تتبعنا بقلب منفتح وروح متيقظة زيارة العذراء لأليصابات، وهي حاملة للسر الإلهي في بطنها ولم يكن أحد آنئذ يعرف مضمون هذا الخبر على الأرض كلها إلاَّ هي وحدها، ثم كيف استقبلتها أليصابات؛ ندرك لا محالة مَنْ هي العذراء مريم وماذا كانت تحمل في بطنها!! اسمع ما يقول الإنجيل: «ودخلت مريم بيت زكريا وسلَّمت على أليصابات، فلما سمعت أليصابات سلام مريم **ارتكض الجنين في بطنها، وامتلأت أليصابات من الروح القدس، وصرخت بصوت عظيم وقالت، مُبارَكةٌ أنت في النساء، ومباركةٌ هي ثمرة بطنك، فمن أين لي هذا أن تأتي أُم ربي إليَّ**. فهوذا حين صار صوت سلامك في أُذنيَّ ارتكض الجنين بابتهاج في بطني» (لو ١:٤٠-٤٤)

واضح جداً أن العذراء كانت تحمل في بطنها السر الإلهي الأعظم «الله في الجسد». لقد أدركه يوحنا وهو جنين في بطن أليصابات، ونبَّه أليصابات أمه، فامتلأت هي أيضاً من الروح القدس وصرخت بصوت عظيم! فماذا يكون هذا الذي في بطن العذراء؟

والعجيب والذي يهمنا جداً، أن الذي جعل الجنين يرتكض والأم تمتلىء بالروح القدس وتصرخ، ليس مجرد ظهور العذراء بل يقول الإنجيل: «هوذا حين صار **صوت سلامك** في أُذنيَّ ارتكض الجنين بابتهاج في بطني».

واضح أن العذراء كما حملت جسد كلمة الله في بطنها حملت صوته في فمها، أي أن سلامها لأليصابات كان يحمل معه أيضاً سلام المسيح الجنين الذي لا زال في البطن. فلم يعد الإله الذي تحمله العذراء في بطنها مخفياً عن الذين يترجُّونه وينتظرونه، إذ لم يكن لاهوت المسيح المتحد بالجسد وهو «جنين» عاجزاً عن أن يُعلن عن مجد حضوره، غير أنه لمَّا لم يكن ممكناً أن ينطق الجنين الإلهي وهو في بطن العذراء، نطق في فمها نطقاً سريًّا مع صوتها لم يسمعه ولم يميزه إلاَّ الذين كانوا يترجُّونه وينتظرونه. فقد ميَّزه يوحنا وهو في بطن أليصابات وابتهج بسماعه!

كما أنه واضح أيضاً من صراخ أليصابات لمَّا امتلأت بالروح القدس وما وصفت به العذراء مريم أنها «**أم ربي**»، أنه ليس نتيجة تفكيرها وفهمها وإنما هوحقيقة مُلهمة نطقت بها من الله وهي تحت تأثير الروح القدس.

وقد كان وصف أليصابات لمريم بكلمة «أم ربي» يعني تماماً «أم الإله»، لأنه فضلاً عن أن كلمة «ربي» هنا أصلها العبري «أدوناي» أي يهوه الإله، فمرادف الكلام وملابسات الموقف تثبت كلها أن أليصابات تعني أُم الإله فعلاً؛ لأنه ليس من المعقول أن أليصابات وهي زوجة كاهن محترم ومتقدمة في السن وحامل هي أيضاً في بطنها بابن موعود به بإعلان ملاك ورؤيا علنية، أن تنسحق هذا الانسحاق وتتصاغر هذا التصاغر أمام فتاة صغيرة فقيرة ويتيمة، وعذراء بعد لم تتزوج، وتقول لها: «**مِنْ أين لي**» ... «من أين لي هذا أن تأتي **أُم ربي إليَّ**»؟؟؟

إذاً، فالأمر في عين أليصابات كان فائقاً عن حدود البشر، وقد انكشف لها بلا أدنى شك كرامة العذراء مريم الفائقة وحقيقة أُمومتها لأدوناي أي «يهوه»!

من أين لي، من أين لي ... أن تأتي أم ربي إليَّ!؟

فإذا كان لسان حال أليصابات هو هذا التصاغر وهذا الانسحاق أمام العذراء، وهذا التكريم الفائق لها، مع أن أليصابات كانت زوجة كاهن وأم يوحنا الصابغ، الملاك الذي أعدَّ الطريق أمام الرب، الذي لم يقم من بين المولودين من النساء مَن هو أعظم منه كقول الرب، فماذا يكون لسان حالي أنا وماذا يقول كل إنسان في العذراء مريم؟

ثم لو عدنا إلى ما قالته العذراء عن نفسها في تسبحتها لله رداً على تحية أليصابات لها وتكريمها لشخصها، نجد أنها لم تستعفِ من هذه الكرامة ولا أنكرت الرفعة التي رفعتها أليصابات إليها، بل وافقت وأمَّنت عليها في اتضاع بشري جميل:

«نظر إلى اتضاع أمته، فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني.
القدير صنع بي عظائم، ... رفع المتضعين ...
أشبع الجياع خيرات!!!» (لو ١:٤٨ و٤٩ و٥٢ و٥٣)

إذاً فبقدر ما كشفت أليصابات عن كرامة العذراء كأُم الإله، بقدر ما كشفت العذراء عن نفسها أن القدير فعلاً صنع بها عظائم!!! وبقدر ما قالت أليصابات عن مريم: «مباركة أنتِ في النساء ... طوبى للتي آمنت أن يتم ما قيل لها من قِبَل الرب»، بقدر ما قالت هي عن نفسها: «هوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني». هذا التطبيق المدهش في تكريم العذراء نادر المثال، لأنه كما قِيل عنها كذلك قالت هي عن نفسها، والحقيقة أن الذي نطق في أليصابات هو هو الذي نطق في العذراء، وهو الذي ينطق في كل إنسان، في كل زمان ومكان، بكرامة هذه العذراء.

يلاحِظ القارىء أننا بدأنا هذه المقدمة بذكر مجمع أفسس، والسبب في ذلك هو أننا نريد أن نقدِّم شخصية العذراء من واقع التقليد الكنسي.

فإن كان التقليد الإنجيلي قد بدأ مبكراً في إبراز شخصية العذراء بواسطة الملاك جبرائيل منذ لحظة الحمل الأُولى، ثم بواسطة أليصابات بعد بداية الحمل، وكذلك إن كان التقليد الآبائي لإبراز شخصية العذراء بدأ مبكراً أيضاً، فمنذ القرن الثاني والآباء العظام يتحدثون عن العذراء باستفاضة سواء عن أُمومتها للإله أو بتوليتها الدائمة أو شفاعتها (محاماتها عن نسل حواء) أو أُمومتها لأولاد الله أو أوصافها الرمزية التي جاءت في العهد القديم، وهذا سوف نعرض له أثناء متابعتنا للتقليد الكنسي؛ إلاَّ أن التقليد الكنسي الذي مارسه المؤمنون لتكريم العذراء بصورته الحالية الغامرة الفياضة في الطقوس والصلوات والتسابيح، بدأ متأخراً نوعاً ما، إذ لا نستطيع أن نتتبعه إلاَّ إلى زمن مجمع أفسس فقط أي سنة ٤٣١م. أي منذ أن بدأت الكنيسة تنتبه إلى أهمية إبراز شخصية العذراء القديسة مريم كوالدة الإله لضبط مفهوم التجسُّد الإلهي.

وقد استخدمت الكنيسة شيئاً كثيراً من التسابيح والألحان الطويلة والمردات القصيرة في خدمة التسبحة اليومية، وفي خدمة رفع بخور باكر وعشية، وفي خدمة القداس، وفي خدمة صلوات السواعي النهارية والليلية. هذا بالإضافة إلى مناسبات أعيادها الرسمية وتسابيح شهر كيهك الخاصة بالميلاد.

وفي هذه التسابيح والألحان والمردات تركزت جميع الأوصاف التي خلعتها الكنيسة على العذراء القديسة مريم.

وهنا جدير بنا أن نقف وقفة قصيرة لكي نستثني كافة التسابيح الدخيلة التي دسها بعض المعلمين المحدثين سواء كان في قِطع السواعي أو الأبصلمودية الكيهكية،

ومعظمها دخل بعد القرن الثالث عشر، وبعضها أُضيف بعد القرن التاسع عشر، أي بدخول الطباعة. وللأسف فهي لا تحمل أصالة الطابع اللاهوتي الأرثوذكسي القويم، كما أنها – للأسف أيضاً – تخرج عن منهج الآباء في التسابيح في أوضاع كثيرة، لذلك سنضطر أن نتجاوزها. وسوف نشير إليها إشارة عابرة أثناء عرضنا للتسابيح والألحان الأصيلة.

ومما يزيدنا ثقة وافتخاراً بتسابيحنا الكنسية، ما وجدناه – بعد الفحص – أن معظم الأوصاف والتشابيه والرموز والألقاب التي للعذراء التي وردت في تسابيحنا الكنسية، ليست مجرد اجتهاد من المؤلفين، وإنما هي مأخوذة عن أصالة لاهوتية ودقة في التعبير والتشبيه، وكلها من وضع آباء قديسين ولاهوتيين عظام استوحوها بدورهم من الله ومن رموز ونبوات العهد القديم التي تحققت في شخصية العذراء.

وقد استطعنا أن نرجع إلى مؤلفات الآباء ونستخلص منها هذه النصوص بعينها التي استخدمتها الأبصلمودية المقدسة، وأشرنا إليها في مواضعها. وغرضنا من ذلك بطبيعة الحال أن نلفت نظر هذا الجيل إلى دقة هذه التسابيح وأصالتها اللاهوتية وعمقها الروحي، حتى تدخل ضمن نشاطنا الروحي اليومي بفرح، كما كان يصنع آباؤنا.

وفي ختام هذه المقدمة نشير إلى المفارقة الصارخة بين كمية التسابيح والألحان والمردات التي تختص بالعذراء والتي تتخلل كافة الخدمات اليومية، وبين كمية علاقتنا الشخصية بالعذراء مريم في واقعنا اليومي!

فبالرغم من أن الكنيسة تقضي يومياً عدة ساعات في تكريم العذراء بالتسابيح المبدعة والألحان الرقيقة والمردات التشفعية المنسكبة، إلاَّ أن الإنسان المسيحي العابد لا يستجيب لهذا الدعاء والتوسُّل والتشفُّع في قرارة نفسه. والعلة في ذلك بكل أسف

ترجع إلى ضعف التسليم، فالآباء المعلمون سواء كانوا من شيوخ البرية المتوحدين، أو الكهنة أو الأراخنة الأتقياء لا يحملون صورة صحيحة مطابقة لروح الكنيسة من جهة تعلقها التقوي بالعذراء القديسة وتكريمها الشديد لشخصها المبارك. ولعل هذا من ضمن الأسباب التي جعلت هذا الجيل ينفضُّ عن التسبيح داخل الكنيسة ويتهاون بخدمات الألحان والمردات والتشفعات.

لذلك نود أن نضع أمام القارىء الصورة الأصيلة لعقيدة الكنيسة الأرثوذكسية من جهة «شركة القديسين». فالعبادة في كنيستنا سواء في القداس أو كافة الصلوات الأخرى تقوم على أساس اجتماع المؤمنين مع أرواح القديسين والأبرار والشهداء المنتقلين والملائكة والعذراء القديسة مريم. لذلك ترى أيها القارىء على حجاب الهيكل الحامل للصور، صور هؤلاء جميعاً بدرجاتهم السماوية وكأنما الكنيسة قد احتجزت لهم الصف الأمامي لحضورهم على الدوام، وجعلت ظهورهم نحو الشرق لأنهم لم يعودوا بعد ينتظرون المسيح الآتي مثلنا بل هم معه الآن كل حين، وجعلت وجوههم نحونا لكي يعزونا ويؤازرونا ويتقبلوا توسلاتنا وصلواتنا.

وكما يتقدم الكاهن إلى البطريرك أو المطران أو الكهنة المساعدين بالبخور، وكذلك كافة الشعب فرداً فرداً ليُشرك الجميع في الصلوات، كذلك يسبق أولاً ويتقدم إلى صور القديسين ويجمع منهم صلواتهم عنَّا، باعتبار أن الكاهن مسئول عن جمع صلوات الكنيسة كلها المنتصرة والمجاهدة، ثم يصعد إلى الهيكل ليقدمها أمام المذبح الإلهي البديل المؤقت للمذبح الإلهي الناطق السمائي(١).

فعمل الكاهن الآن هو نفس عمل ملاك الختم السابع الذي ظهر ليوحنا الرسول

(١) أوشية القرابين والآباء في القداس.

في الرؤيا: «وجاء ملاك آخر ووقف عند المذبح ومعه مبخرة من ذهب وأُعطي بخوراً كثيراً لكي يقدمه مع صلوات القديسين **جميعهم** على مذبح الذهب الذي أمام العرش. فصعد دخان البخور مع صلوات القديسين من يد الملاك أمام الله.» (رؤ ٨:٣و٤)

وبمقتضى هذه العقيدة الأرثوذكسية الحية، تحيا الكنيسة كل يوم مع القديسين والملائكة وبالأخص العذراء مريم بصفتها أقرب الجميع إلى شخص المسيح: «قامت الملكة عن يمين الملك» (مز ٤٥:٩ حسب الأجبية). وهكذا بقدر ما نقترب من القديسين نقترب من المسيح، وبقدر ما نقترب من المسيح نقترب من القديسين بالضرورة(٢).

ومن المحقق أن حياة الشركة مع القديسين التي نحياها منذ الآن بمقتضى العقيدة الأرثوذكسية، فوق ما نكتسبه منها من مؤازرة، فهي تحمل صورة كاملة لمعنى الكنيسة في مفهومها الإلهي حسب منتهى مشيئة الله.

الأب متى المسكين

(٢) القديس دوروثيئوس الذي من غزة.

المنهج الكنسي لإبراز شخصية العذراء

المنهج الكنسي لإبراز شخصية العذراء

ما كانت تحتفظ به الكنيسة من نصوص وعقائد إيمانية لتكريم العذراء وشرح صفاتها كما تسلمته من الرسل(٣) والآباء الأوائل، وكان ضمن المخطوطات والتسليم الشفاهي فقط، بدأت الكنيسة منذ سنة ٤٣١م إدخال هذه النصوص الإيمانية ضمن خدماتها اليومية داخل الطقس. ولكي ننير ذهن القارىء لمعرفة كافة الظروف والمناسبات التي تذكر فيها الكنيسة العذراء مريم، نلخّص هذه المناسبات الطقسية في الآتي:

أولاً: أضافت مضمون العقيدة التي أقرها مجمع أفسس فيما يختص بكرامة العذراء مريم إلى قانون الإيمان، وهي المقدمة التي مطلعها: «نعظّمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله». وهذا القانون يُتلى في الأوقات الآتية:

أ – في صلوات الكنيسة الجامعة وفي رفع بخور عشية وباكر.

---

(٣) وعلى سبيل المثال نقدّم قولاً للكاتب العالِم هيبوليتس (١٧٠-٢٣٦م) الذي فيه يقرر تقليداً رسولياً عن العذراء: «إذاً، فلنؤمن أيها الإخوة الأعزاء **حسب التقليد المسلّم إلينا من الرسل** أن الله الكلمة نزل من السماء وحل في بطن العذراء القديسة مريم، حتى بأخذه الجسد منها وحصوله على نفس بشرية وقد صار له كل ما للإنسان ما خلا الخطيئة، يستطيع أن يخلّص الإنسان الساقط ويمنح عدم الموت لكل مَن يؤمن به» *Contra Noet.* 17,A NF vol. 5, p. 230.

ب – في خدمة القداس الإلهي قبل تقديم الحمل.

ج – في صلوات مزامير باكر والنوم ونصف الليل.

ثانياً: نظمت التسابيح اليومية التي تُتلى تكريماً للعذراء مريم وتوسلاً للرب بشفاعتها، ووضعت لها طريقة خاصة في التسبيح بهجة جداً، وهي المعروفة بالثيئوتوكيات السبع على سبعة أيام الأسبوع. وفيها شرح وافٍ للعقيدة الأرثوذكسية.

ثالثاً: أدخلت ذِكْر العذراء القديسة مريم في المجمع الذي يُتلى أثناء القداس تكريماً لقديسي الكنيسة، وذلك في الربع الخاص بها الذي يقول فيه الكاهن: «وبالأكثر القديسة المملوءة مجداً العذراء كل حين والدة الإله القديسة الطاهرة مريم التي ولدت الله الكلمة بالحقيقة».

رابعاً: وضعت مردات داخل القداس تختص بالعذراء مريم من أجل طلب شفاعتها لدى المسيح لمغفرة خطايا الشعب:

المرد الأول: يُقال على رأس طلب شفاعات وطلبات الملائكة والرسل والشهداء والقديسين (الهيتنيات).

والمرد الثاني: ينفرد بطلب شفاعة العذراء مريم «بشفاعات والدة الإله القديسة مريم يا رب أنعم لنا بمغفرة خطايانا ...».

خامساً: حولت بعض قطع التسابيح الخاصة بالعذراء التي في الأبصلمودية إلى ألحان طويلة، كما وضعت بعض ألحان خاصة لتُقال في المناسبات كما يوافق الوقت وأهمها:

١ – في القداس:

أ – **في ختام لحن البركة:** «السلام لمريم الملكة»، ويقال قبل تقديم الحَمَل، ويُلاحَظ دقة المناسبة بين معنى اللحن وتقديم الحمل، «باعتبار أن العذراء هي أُمُّ الحمل».

ب – **بعد صلاة الشكر:** «أساساته في الجبال المقدَّسة، أحب الله أبواب صهيون أفضل من جميع مساكن يعقوب ...»، ويُقال في الصوم المقدَّس، وهو المزمور ٨٧ الذي يشير إلى السيدة العذراء باعتبارها مدينة الله المقدَّسة.

ج – **عند رفع بخور البولس:** ويُلاحَظ دقة المناسبة بين معنى اللحن ومناسبة وضع البخور في الشورية حيث يُقال:

+ في الأعياد وأيام الفطر: «هذه المجمرة الذهب النقي الحاملة العنبر ...»

+ في عيدَيْ الصليب والساعة التاسعة من يوم الجمعة العظيمة: «المجمرة الذهب هي العذراء ...»

+ في الصوم المقدَّس: «أنتِ هي المجمرة الذهب النقي الحاملة جمر النار المبارك ...»

د – **قبل قراءة الإبركسيس:**

+ في الأيام السنوية وفي كافة أعياد العذراء: «السلام لكِ يا مريم الحمامة الحسنة التي ولدت لنا الله الكلمة».

+ مرد سنوي آخر: «حينئذ بالحقيقة لا أُخطىء في شيء إذا ما دعوتُكِ المجمرة الذهب» وهو مأخوذ من ثيئوتوكية الأحد القطعة السادسة.

+ في شهر كيهك أيام صوم الميلاد: «السلام لكِ يا مريم، سلامٌ مقدَّس ...»

+ في برمون الميلاد: «يا للطلقات الإلهية المتعجَّب منها ...» ويُلاحَظ أنه مأخوذ من ثيئوتوكية الخميس القطعة الخامسة.

+ في عيد البُشارة: «السلام للتي وجدت نعمة، الرب معكِ...» وهو مأخوذ من ثيئوتوكية الثلاثاء القطعة الثالثة.

هـ – **بعد قراءة الإبركسيس:** وهذه الألحان تُقال في ليلة عيد الميلاد المجيد:

+ «اليوم البتول تلد الفائق الجوهر...»، وهو لحن يوناني.

+ «الميلاد البتولي والطلقات الروحانية عجب عجيب كالأخبار النبوية»، وهو لحن قبطي يُقال بعد اللحن السابق.

+ «ميلاداً عجيباً، ومولداً عظيماً ...»، وهو لحن يوناني برالكس(٤) يُقال بعد اللحن السابق أو في التوزيع.

و – **مردات للأناجيل:**

+ للأحدين الأول والثاني من كيهك: «نعطيكِ السلام مع غبريال ...». ويُلاحَظ أن هذه القطعة مأخوذة من لُبْش السبت.

---

(٤) برالكس معناه «لحن مكرر بالتبادل».

+ للأحدين الثالث والرابع من كيهك: «نرفعك باستحقاق مع أليصابات ...»، وهذه القطعة مأخوذة من لُبْش السبت أيضاً. وهذه القطع تُقال بالطريقة الكيهكي.

+ في برمون الميلاد: «مريم العذراء ويوسف وسالومي تعجَّبوا جداً ممن رأوه».

ز – أسبزموسات آدام(٥): تُقال بعد صلاة الصلح وقبل قداس المؤمنين:

+ في الأيام السنوية وجميع أعياد العذراء: «افرحي يا مريم»، ويُلاحَظ دقة المناسبة بين تكميل القبلة بين أفراد الشعب وفرح مريم بذلك كأُم لكافة أولاد الله! وهذا اللحن مأخوذ من لُبْش الثلاثاء.

+ في عيد الميلاد: «السلام للسماء الجديدة التي أشرق لنا منها شمس البر ...»

+ وفي عيد الميلاد أيضاً: «المولود من الآب قبل الدهور وَلَدْته الملكة وبتوليتها مختومة ...»

+ في عيد البُشارة: «السلام لوالدة الإله تهليل الملائكة»، وهو مأخوذ من ثيئوتوكية الثلاثاء القطعة الثالثة.

+ في خميس العهد: «خبز الحياة الذي نزل لنا من السماء»، وهو مأخوذ من ثيئوتوكية الأحد القطعة الرابعة.

---

(٥) أسبزموس معناه «تحية حارة» أو «سلام العناق»، وآدام أو واطس هو نوع اللحن.

+ في صوم العذراء وأعيادها: «هوذا ما هو الحسن أو ما هو الحلو إلاَّ تذكار والدة الإله ...»

ح – أسبزموسات واطس تُقال قبل «قدوس» في قداس المؤمنين:

+ في عيد البُشارة: «طأطأ سموات السموات وأتى إلى بطن العذراء ...»، وهو مأخوذ من ثيئوتوكية الخميس القطعة الثامنة.

+ في صوم العذراء وأعيادها: «مَن أنا الضعيف أكثر من كل مَنْ على الأرض لكي أنطق بكرامتك يا مريم».

ط – بعد مجمع القديسين: «بصلوات وشفاعات ذات كل قداسة الممجدة الطاهرة المباركة ...» وهي قطعة يونانية.

ي – ما يُقال في التوزيع:

+ في الأيام السنوية: «خبز الحياة الذي نزل لنا من السماء»، وهذا اللحن أغلبه مأخوذ من ثيئوتوكية الأحد القطعة الرابعة وفيه بعض أرباع تمجيد للسيدة العذراء.

+ في عيد الميلاد: «ميلاداً عجيباً. ومولداً عظيماً ...» وهو لحن يوناني برالكس.

+ وهناك قطع أُخرى باليونانية تُقال في التوزيع:

«أفتح فمي فيمتلىء روحاً ...»

«مستأهلة حقًّا أن نغبط والدة الإله ...»

«يا والدة الإله أيتها الينبوع الحي ...»

٢ – في رفع بخور عشية وباكر:

أ – **بعد صلاة الشكر:** لحن «أرباع الناقوس» في كتاب الأبصلمودية

ب – **مرد إنجيل عشية** في صوم العذراء وأعيادها: «نساءٌ كثيرات نلن كرامات ...» وهو مأخوذ من ثيئوتوكية الجمعة القطعة الرابعة.

ج – **مرد إنجيل باكر** في صوم العذراء وأعيادها: «كل ملوك الأرض يسيرون في نورك ...» وهو مأخوذ من ثيئوتوكية الأربعاء القطعة الثانية.

٣ – ألحان تُقال في أعياد السيدة العذراء وتماجيدها:

+ في عيد دخولها الهيكل: «منذ كان عمرك ثلاث سنوات» ومعه برالكس.

+ في عيد البُشارة: «القصد الذي قبل كل الدهور، لكي يكشف لكِ أيتها الفتاة ...» وهي قطعة يونانية.

+ في عيد نياحتها: «في ميلادك حفظتِ البتولية وصُنْتِها ...»، وهي قطعة يونانية أيضاً.

+ وفي عيد نياحتها أيضاً: «مستحقة مستحقة ...» وهو لحن تطقيس بالقبطية.

في التماجيد:

- «افرحي يا والدة الإله العذراء» وهي قطعة يونانية.
- «آجيوس استين أوباتير ...» وهي قطعة يونانية أيضاً.
- «سبع مرات كل يوم ...» وهي قطعة بالقبطية مأخوذة من ثيئوتوكية الأحد القطعة الثامنة.
- «اشفعي فينا يا سيدتنا كلنا».

- «البخور المختار الذي لبتوليتك ...» وهذه القطعة مأخوذة من ذكصولوجية باكر للعذراء.
- «هذه العذراء نالت اليوم كرامة ...» وهي قطعة قبطية.
- «داود حرك الوتر الأول ...» وهي قطعة قبطية برالكس، منتخبة من المزامير وكلها تشير إلى العذراء.
- «أنا بنَّاء. أنا نجار ...» وهي قطعة بالقبطية أيضاً، ومعها برالكس.

في عقد الأملاك (الأكاليل):

- «باب المشارق هو مريم العذراء ...»
- «كل ملوك الأرض يسيرون في نورك ...»

وهذان اللحنان مأخوذان من ثيئوتوكية الأربعاء القطعتين الأولى والثانية.

- «تعال لننظر هذه العروس التي تزينت للحمل ولبست هذا المجد العظيم ...» وهذا اللحن معه برالكس، ويُقال أيضاً في الأكاليل.

٤ – ألحان التسبحة:

أ – تسبحة نصف الليل:

+ «السلام لكِ يا مريم الحمامة الحسنة ...» وهو النصف الأول من القطعة السابعة من ثيئوتوكية الأحد. ويُقال هذا اللحن كل يوم، ويُعتبر من الألحان القبطية الرائعة.

+ «مدعوة أنتِ بالصدق أيتها القديسة ...» وهو النصف الثاني من القطعة السابعة من ثيئوتوكية الأحد، ويُقال بعد اللحن السابق.

+ «عظمتكِ يا مريم العذراء غير الدنسة» ذكصولوجية للعذراء تُقال بعد المجمع.

+ «أنتِ مستوجبة أكثر من جميع القديسين ...». وهذا اللحن يُقال يوم الأحد، وهو عبارة عن الربع الأول من القطعة العاشرة من ثيئوتوكية الأحد.

+ «مِن قِبَلِ مريم ابنة يواقيم، عرفنا الذبيحة الحقيقية لغفران الخطايا ...». وهذا اللحن يُقال يوم الأحد، وهو عبارة عن الربع ١٧و١٨ من القطعة ١٥ من ثيئوتوكية الأحد.

ب – تسبحة عشية وباكر:

+ «زينة مريم في السموات العلوية ...» تُقال في تسبحة رفع بخور عشية.

+ «أنتِ يا أم النور المكرمة ...»، تُقال في تسبحة باكر المعروفة بذكصولوجية باكر الآدام.

+ «البخور المختار الذي لبتوليتكِ ...» تُقال بعذ القطعة السابقة.

+ «طوباكِ أنتِ يا مريم الحكيمة العفيفة ...» تُقال في رفع بخور باكر.



توضيح العقيدة الأرثوذكسية بالنسبة للعذراء مريم من واقع المنهج الكنسي التقليدي

يُعتبر كتاب التسبحة المعروف بالأبصلمودية المقدسة السنوية أقدم وثيقة حية في الكنيسة الأرثوذكسية فيما يختص بتوضيح العقيدة المتعلقة بشخصية العذراء مريم.

والمعروف أننا لم نرث من الكتابات الرهبانية وآدابها شيئاً يُذكر عن العذراء مريم في الخدمات والعبادات العامة والخاصة حتى قبل منتصف القرن الخامس. فالتسبحة اليومية التي كان يتلوها الآباء، سواء في قلاليهم ومغايرهم أو في الكنيسة، لم تكن تخرج عن المزامير المسمَّاة «بالهوسات» وبعض الألحان القصيرة المسمَّاة «إبصاليات» على كافة أيام الأسبوع. وكان المجال مفتوحاً إلى ما لا نهاية بواسطة تطبيق الطريقة الصوتية المتَّبعة في التسبيح بالهوسات الأربعة على بقية كتاب المزامير.

وبقيام مجمع أفسس دخلت التسابيح في الكنيسة مرحلة خصب جديدة، إذ بدأ المؤلفون من الآباء الموهوبين بوضع تسابيح وألحان خاصة بالعذراء وهي «الثيئوتوكيات» التي استوفت جميع المبادىء العقائدية التي نادى بها الأساقفة في مجمع أفسس وعلى رأسهم القديس البابا كيرلس الكبير، بالإضافة إلى ما كانت الكنيسة تختزنه في تقاليدها الشفاهية والمكتوبة عن العذراء مريم.

وبذلك امتدت التسبحة منذ القرن الخامس حتى شملت صورتها التي بين أيدينا الآن. ويذكر التاريخ بالفضل الآباء رهبان برية القديس الأنبا أنطونيوس، إذ أن المعروف أنهم اضطلعوا بتأليف الجزء الأكبر منها.

إذاً، فالمصدر الوحيد الحي إلى الآن والذي يحوي كل العقيدة الأرثوذكسية عن العذراء بكافة دقائقها هو «**الثيئوتوكيات**»، التي منها أخذ المؤلفون بعد ذلك مادة للتأليف المشابه وتركيب الألحان.

والثيئوتوكيات تبدو في ظاهرها بسيطة، فهي عبارة عن أوصاف ومشابهات رمزية بين العذراء مريم وبين رموز العهد القديم فيما يتعلق بصلتها بحلول الله فيها. لذلك يبدو لأول وهلة أنه من السهل جداً على أي إنسان أن يأتي بتشابيه للسيدة العذراء من العهد القديم. ولكن من العسير غاية العسر أن يأتي التشبيه مطابقاً تماماً للعلاقة التي بين العذراء وابنها الرب يسوع.

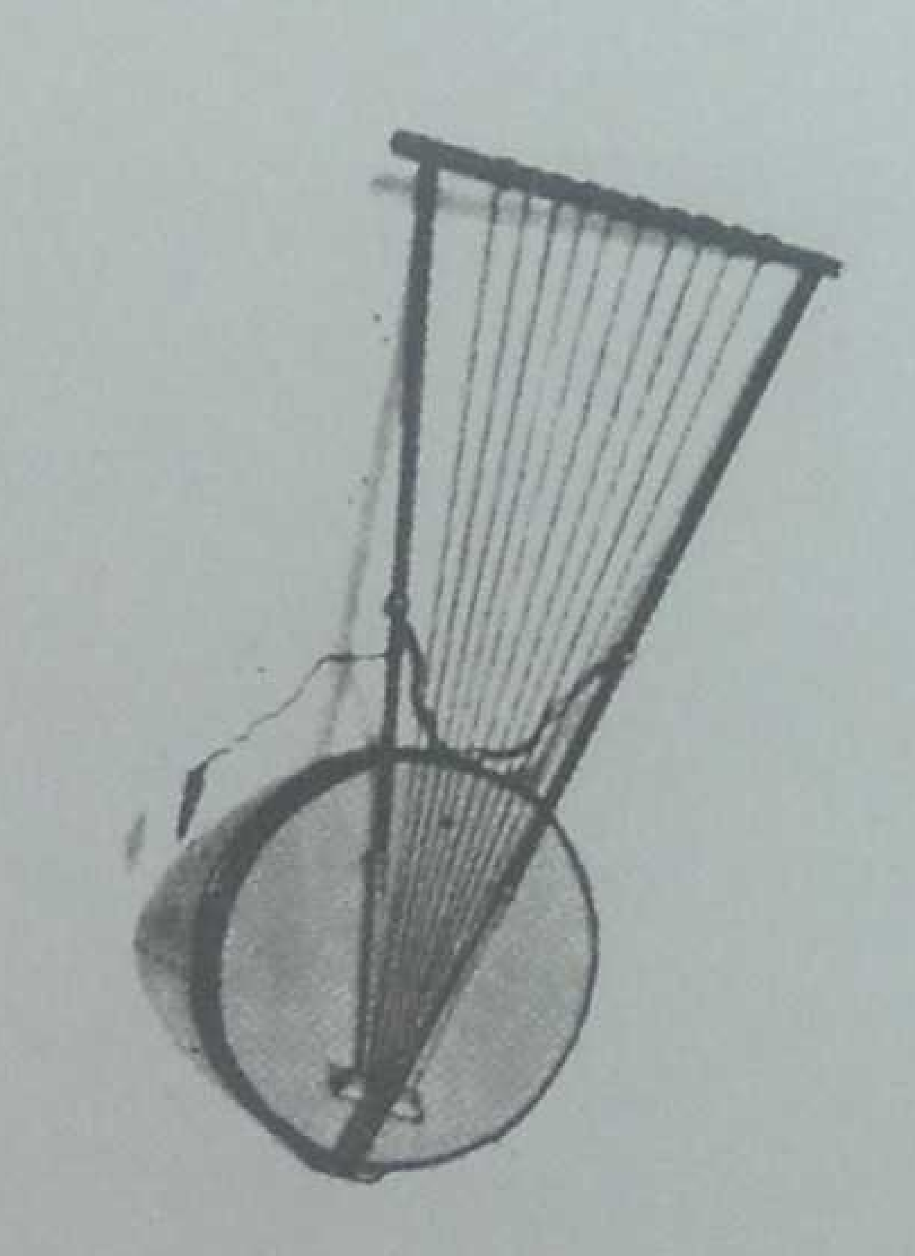
فكثير من العلماء والكُتّاب الكنسيين دخلوا هذا المضمار وملأوا صفحات كثيرة من الكتب عن أوصاف للعذراء تبدو في شكلها وألفاظها وتصاويرها جميلة، ولكن يعوزها الانطباق اللاهوتي السليم والحبك المنطقي والمعنوي، حتى بعد قليل من الفحص والتأمل تبدو هذه الأوصاف والتشابيه خاطئة ومنحرفة، وأغلبها يُعتبر افتئاتاً على العلاقة اللاهوتية السليمة التي تربط العذراء بالرب يسوع، بل وبعضها يضع المسيح موضع العذراء والعذراء موضع المسيح، فتتبادل أوصاف كل واحد منهما مع الآخر في نفس الصفحة الواحدة، مما يشمئز منه الذوق اللاهوتي السليم.

كذلك فإن بعض الأوصاف يستحيل انطباقها لاهوتياً، ويتورط المؤلف في سردها لمجرد وصف مريم العذراء بكل ما ورد في خيمة الاجتماع مثلاً دون فحص أو حذر، فنتج عن ذلك أن ضاعت القيم السليمة وتشوّشت الأوصاف الرمزية

الحقيقية حتى صارت أوصاف العذراء مريم غير ذات اتجاه لاهوتي وبلا قوة، ولا يستفيد منها المتأمل والمصلي بالمعاني التي يمكن أن ترفع روحه وقلبه وعقله إلى حضرة الله الحقيقية.

ولكن يمكننا بكل وثوق وتأكيد تقديم الثيئوتوكيات السبع كمثال لاهوتي بارع لوصف العذراء مريم بكل الأوصاف المطابقة تماماً لطبيعة رسالتها، **ونشير بصفة خاصة إلى ثيئوتوكية الأحد، ثم نشير على وجه أخص وممتاز إلى الست القطع الأولى من هذه الثيئوتوكية**، التي تشهد بدون جدال إلى روحانية كاتبها ودقته اللاهوتية وتأملاته المُحْكَمة، فقد جاءت بكل ما يمكن من الأوصاف العميقة السهلة التي تناسب السيدة العذراء، والتي، بشيء من التأمل البسيط، يمكن أن ترفع قلب الإنسان إلى عمق اللاهوت وبالتالي تدفعه إلى التسبيح والتمجيد عن ضرورة وإلحاح.

وسوف نتوقف عند كل قطعة لنشير بأصبعنا الضعيف إلى النواحي السرية العميقة في التشبيه حتى نعطي القارىء فرصة للتأمل والتسبيح.



الثيئوتوكيـات

الثيئوتوكيات(٦)

وعددها سبع مرتبة على أيام الأسبوع السبعة، وهي خاصة فقط بالسيدة العذراء كما هو واضح من الاسم «ثيئوتوكس»(٧) فيحمل تراثاً إيمانياً ذا قيمة لاهوتية عظيمة وخطيرة في الكنيسة، ومعناه باليونانية «حاملة الإله» أي التي حملت الإله في بطنها. وهذا اللقب الخاص بالمطوَّبة مريم العذراء تقليد قديم في الكنيسة نقرأ عنه منذ كتابات العلاَّمة أوريجانوس (وهو قبطي عاش بين سنة ١٨٥-٢٥٤م)، وفي كتابات هيبوليتس العالِم والكاتب الكنسي (وهو شرقي إسكندري بحسب التحقيق عاش بين سنة ١٧٠-٢٣٦م). ثم انتشر في الكنيسة كلها كاصطلاح لاهوتي للصلاة والإيمان، ولكنه هوجم من نسطور المبتدع وأتباعه لزعزعة الإيمان بلاهوت

---

(٦) الثيئوتوكيات تجدها في كتاب الأبصلمودية المقدسة السنوية، وهو كتاب خدمة التسابيح للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ولا غنى عنه قط لكل مَن يُدعى أرثوذكسياً، وكل كلمة قبطية فيه مترجمة إلى اللغة العربية مقسَّمة على نهرين، ويمكن التسبيح والصلاة بالنهر العربي.

(٧) «الثيئوتوكوس»: تُترجم حاملة الإله، ويقابلها باللاتينية Deipara ولكن اللاتين لا يستخدمون هذا المقابل الحرفي «للثيئوتوكس» بل يستخدمون كلمة Dei Genitrix وهو مقابل آخر يحمل امتداداً للمعنى الأصلي، ولكننا نعتقد أن اصطلاح «والدة الإله» هو في الأصل أرثوذكسي وقديم في الكنيسة ويُقال بالقبطية: ⲫⲙⲁⲥⲛⲟⲩϯ كما جاء في ثيئوتوكية الثلاثاء القطعة الثالثة والسابعة، ⲑⲙⲁⲩ ⲙ̀ⲫϯ كما جاء في ثيئوتوكية السبت القطعة السابعة.

المسيح نفسه، فانبرى لهم القديس كيرلس الإسكندري الكبير الذي قاد الكنيسة كلها ضدهم فحرمهم جميعاً في مجمع أفسس، وانتصرت «الثيئوتوكس» سنة ٤٣١م؛ فصار الاصطلاح عقيدة لاهوتية مدعَّمة بالقانون الكنسي.

ولكن الكنيسة أرادت أن تعيش هذا الاصطلاح الإيماني على الدوام وإلى مدى الأجيال، فجعلته أساساً لسبع تراتيل غاية في الحسن والإتقان، تسبِّح بها يومياً في استغراق طويل. واختارت لها هذا العنوان «ثيئوتوكية» أي «لحاملة الإله»، حتى يبقى الاصطلاح العقيدي بتاريخه الطويل مسيطراً على الفكر والقلب أثناء خدمة العبادة اليومية في الكنيسة إلى مدى الأجيال، طالما وُجد في الكنيسة من يسبِّح بالتسبحة.

ولكن هذا فقط يختص بالعنوان «الثيئوتوكية»، أمَّا مضمون الثيئوتوكيات السبع فهو يتسع جداً حتى إنه يشمل المنهج اللاهوتي الذي تعيشه الكنيسة إيمانياً منذ البدء، مضافاً له ما انتهت إليه المجامع الثلاثة القانونية وأقرَّته فيما يختص بشخص المسيح من جهة وحدة طبيعته ووحدانية أقنومه وعجيبة ميلاده، على أساس علاقة ذلك كله بالمطوَّبة القديسة مريم العذراء؛ مع كشف سر الرموز التي وردت في العهد القديم التي تختص بشخصية العذراء وصلتها السرية بالمسيح ابنها، مع تحديد مرماها اللاهوتي بشكل واضح وبطريقة سهلة جذَّابة مكَّنت ألوف المرتلين في الكنيسة أن يحفظوها جميعاً عن ظهر قلب بسبب جمال توقيعها الصوتي وما يربطها من ألحان طويلة مبهجة.

ثيئوتوكية الأحد

وهي عبارة عن ثماني عشرة قطعة، ولكن تنفرد الست القطع الأُولى عن الاثنتي عشرة قطعة الأخرى الباقية، في أمور كثيرة:

أولاً: الست القطع الأُولى أصيلة مزدوجة تحمل روح الثيئوتوكية بمعناها الأصيل المحدد بالهدف اللاهوتي الذي من أجله وُضِعت الثيئوتوكية كما أوضحناه. وهي تدل على أن واضعها ذو شخصية لاهوتية تصوفية بارعة، وفيها يسند للسيدة العذراء تأويلات رمزية من العهد القديم. ويُلاحَظ أن كل قطعة من الست القطع مقسمة إلى قسمين: الأول يحمل الرمز، والثاني يحمل التفسير اللاهوتي بإتقان وحبك كما تُؤمن به الكنيسة.

والتزمت كل قطعة بشطريها – وبلا استثناء – أن تذكر وتفسِّر العلاقة السرية العجيبة التي بين المطوَّبة مريم العذراء وبين المسيح ابنها.

والجاري في تسبيح هذه القطع المزدوجة في كنائس الصعيد حتى الآن عند المرتلين المتمسكين بالتسليم الصحيح، أن تُرتَّل هذه القطع بنغمتين متميزتين، نغمة للنصف الذي يحمل الرمز ونغمة للنصف الذي يحمل التفسير حتى ينتبه السامع وينتفع القارىء من متابعة المعنى.

ثانياً: كما يُلاحَظ أيضاً أن هذه القطع الست (مضافاً إليها القطعة السابعة) تنتهي بخاتمة توضِّح أن هذا هو سر تعظيمنا للسيدة العذراء، وإنما خاتمة النصف الذي

يحمل التفسير يُزاد فيه على الدوام اللقب النبوي الرمزي الذي خلعته الثيئوتوكية على العذراء: «**لأنهم تكلَّموا من أجلك بأعمال كريمة أيتها المدينة المقدسة التي للملك العظيم**».

المضمون الرمزي واللاهوتي للثيئوتوكية
الست القطع الأُولى

القطعة الأولى: يتضمن النصف الأول الرمزي أن العذراء هي **قدس الأقداس** في خيمة الاجتماع ...

ثم يأتي النصف الثاني ويفسِّره بأنها هي الخيمة الحقيقية «**التي في داخلها الله**».

ويُلاحَظ هنا أن الثيئوتوكية تختار جزءاً معيناً من خيمة الاجتماع، هو قدس الأقداس، فتجعله رمزاً لمريم العذراء. فلو رجعنا إلى أوصاف قدس الأقداس وقيمته ومعناه لإدراك قيمة هذا الرمز وتفسيره، نجد أن قدس الأقداس هو الجزء الوحيد من الخيمة الذي يحلُّ فيه الله. وبذلك يصبح التفسير واضحاً وهو حلول الله في بطن العذراء. والمعروف أن قدس الأقداس هو القبة الثانية المسمَّاه المسكن الثاني، وهو المسمَّى أيضاً بالمحراب: «المحراب أي قدس الأقداس» (١ مل ٦:١٦). والمحراب هو بالعبري نفس كلمة «هيكل» Hekhel، التي تُستخدم كما هي باللغة العربية، وكل هذه الكلمات المترادفة تُفيد أنه الجزء المخصص لحلول الله.

لذلك فكلُّ وصف وتشبيه للعذراء جاء على فم الآباء باسم القبة أو المسكن أو الهيكل يكون المقصود منه قدس الأقداس في الخيمة، أو المكان العالي المخصص في المجامع لوضع التابوت الحاوي للأسفار المقدَّسة (كلمة الله).

ولكي يحل الله في قدس الأقداس، كان يلزم فصله أولاً عن بقية الخيمة الذي يمثل عملية اختيار الله للعذراء من كافة جنس النساء. ثم يلزم أيضاً مسحه وتقديسه. وقد تم هذا للعذراء بحلول الروح القدس عليها وسُكْنى قوة العلي فيها تمهيداً لحلول اللاهوت في أحشائها.

والمُلاحَظ أيضاً حسب روح العهد الجديد، أن اختيار الله لكل إنسان ثم تقديسه ثم إعطاءه الحياة الإلهية، يتم أيضاً بنفس هذا التشبيه. فمريم في الواقع هي النموذج الكامل والأول للهيكل الجديد أي الكنيسة.

+ [**مريم هي الهيكل السري المُطهَّر من الخطيئة**] (القديس بروكليس بطريرك القسطنطينية، مات سنة ٤٤٦م).
+ [**السلام لمريم الهيكل غير المنهدم**] (القديس كيرلس الكبير).
+ [**أيتها الهيكل المُطهَّر**] (قداس القديس باسيليوس عند الروم).
+ [**صارت بطنك له عرشاً وجسمك احتواه باتساعه الذي يفوق السماء**] (قداس القديس باسيليوس عند الروم).
+ [**الموضع الذي احتوى غير المُحوى**] (القديس كيرلس الكبير).
+ [**طوبى للتي كُنتَ أنتَ في قلبها وعقلها لأنها صارت مسكناً للملك بسببك يا ابن الملك، فأصبحت بواسطتك قدس أقداس أيها الكاهن العظيم**] (تسبحات مار أفرام – التسبحة الثانية عشرة).

يُلاحَظ أن قراءات خدمة قداس يوم ١٦ مسرى، وهو عيد تذكار ظهور جسد العذراء، تدور حول **خيمة الاجتماع وقدس الأقداس**. وهذا يُعتبر تدعيماً من الكنيسة لوصف العذراء بقدس الأقداس.

* * *

القطعة الثانية: يقول النصف الأول الرمزي أن العذراء هي: «**التابوت المصفَّح بالذهب** الذي خشبه لا يُسوِّس».

ويفسره النصف الآخر التفسيري: «**لأنها تسربلت بمجد اللاهوت** داخلاً وخارجاً ... وصارت طاهرة».

هنا تبتدئ الثيئوتوكية تصف الطبيعة الجسدية للعذراء مريم بعد الاختيار والتقديس والحلول الإلهي الذي تم فيها.

فتُشبهها أولاً «بالتابوت» المسمَّى باللغة العبرية «آرون هبريت» أي «تابوت العهد» وباليوناني: κιβωτος της διαθηκην «كيبوتوس دياثيكين» وهي الكلمة التي استُخدمت في اللغة القبطية.

«التابوت المصفَّح بالذهب من داخل ومن خارج الذي خشبه لا يُسوِّس».

ويأتي التفسير المختصر في نفس القطعة ويقول إن هذا يشبه ما حدث لمريم العذراء، إذ تسربلت بمجد اللاهوت من داخل ومن خارج، وصارت طاهرة.

ونلاحظ هنا أن مجد اللاهوت جاء تعبيراً عن تصفيح الذهب فوق الخشب بحيث أن الذهب لم يتحد بالخشب، أي أن كل المواهب الإلهية التي نالتها العذراء كانت مواهب مُضافة إليها وظلت كذلك، كما أن الله الذي حلَّ في أحشائها ولو أنه أخذ جسداً من جسدها إلاَّ أنه ظلَّ منفصلاً عن طبيعتها البشرية و لم يتحد بها.

أمّا الخشب الذي لا يُسوِّس، ففسرته الثيئوتوكية بأنه يعبِّر عن طهارتها. وهذا في الواقع تفسير رائع يشير إلى تطهير جسد العذراء بالنعمة وبإرادتها، حتى صار لائقاً أن يأخذ منه المسيح جسداً له. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذه الحقيقة تُلقي ضوءاً كبيراً على سبب التقليد الكنسي القائل بأن جسد العذراء رُفع إلى السماء، فالجسد الذي لم يخطىء والذي ظلّ طاهراً، جديرٌ حقاً أن يُرفَع إلى السماء.

كما تكشف هذه الحقيقة عن سر قيام العذراء في السماء شفيعة عن الخطاة الذين يتوسلون إليها ويتمسكون بطهارتها، وهو ما تشير إليه الثيئوتوكية قائلة:

«لأنكِ قدَّمت شعباً كثيراً لله ابنك من قِبَلِ طهارتك،

من أجل هذا نعظمكِ لأنكِ مستحقة التمجيد حسب النبوات».

+ [**الكل ارتكب الخطية ما عدا العذراء القديسة مريم التي من أجل كرامة الرب لا أستطيع أن أقبل عنها حتى مجرد السؤال عندما نطرح موضوع الخطية للبحث**].

(القديس أغسطينوس).

+ [**مريم العذراء حازت من النعمة ليس ما يكفيها أن تكون عذراء طاهرة فحسب، بل وبالقدر الذي يؤهلها أن تمنح (بشفاعاتها) البتولية للآخرين لأنها من أجلهم قد جاءت**].

(القديس جيروم ٣٤٢-٤٢٠م).

+ [**مريم هي التابوت المصفَّح بالذهب من الداخل والخارج**].

(القديس بروكليس).

+ [**السلام لأم القداسة التي ليس فيها أدنى عيب**].

(القديس ثيئودوتس أسقف أنقرة: مات سنة ٤٤٥م).

القطعة الثالثة: وتقدِّم فيها الثيئوتوكية تشبيهين مكملين لعمل العذراء مريم ورسالتها العظيمة في الكنيسة:

التشبيه الأول: يختص بغطاء التابوت وعلاقته بمريم العذراء.

التشبيه الثاني: الكاروبان وعلاقتهما بمريم العذراء.

أ - الغطاء الذي على التابوت الذي صُنع من الذهب النقي «حيث كان يتكلم الله قديماً»، هو رمز الله الكلمة الذي حل في العذراء الطاهرة.

ب - يظلِّل على الغطاء والتابوت كاروبان، فسَّره النصف التفسيري بقوة الله العلي التي ظللت على العذراء (ألوف وربوات)، «مُسبِّحين خالقهم وهو في بطنك، هذا الذي أخذ شبهنا ما خلا الخطية والتغيير».

* * *

ملاحظة: لا يمكن أن يُكرَّم التابوت بدون غطاء، فهو ولو أنه قطعة من التابوت إلاَّ أنه أعظم من التابوت وكل ما فيه!!

أ - وهنا تتجه الثيئوتوكية إلى غطاء التابوت بصفته قطعة مكمِّلة للتابوت ومن صميمه، ولكنها ليست من طبيعة التابوت تماماً. وهذا في الواقع إعجاز في التشبيه وروعة في المثال لوجود المسيح في العذراء.

فالغطاء هنا ليس من الخشب، بل من ذهب كما يقول موسى: «وتصنع غطاء من ذهب نقي» (خر ٢٥:١٧)، إشارة إلى طبيعة اللاهوت النارية غير المنظورة التي حلَّت في بطن العذراء:

+ «الغطاء – المظلّل عليه بالكاروبين المصوَّرين – أي كلمة الله الذي تجسَّد منكِ أيتها التي بلا عيب بغير تغيير».

هذا «الغطاء» كان له روعة وهيبة كبيرة في العهد القديم لأنه المكان الذي كان يظهر فيه الله بنور أزرق مهيب – كما يقول التقليد اليهودي – وكان يتكلَّم مع موسى. واسم الغطاء بالعبري القديم kapporet وتترجم باليونانية «إيلاستريون» ιλαστηριον ، والكلمة بالعبرية تعني «الاستعطاف أو الاسترضاء». وكان يُرَش على الغطاء بالدم مرة واحدة فقط كل سنة في يوم الكفَّارة (إشارة إلى أن العطف الإلهي سوف يتم برشِّ دم المسيح كفَّارة عن العالم).

وهذا الغطاء معروف أيضاً في العبرية بلغة الترجوم – وهي أكثر حداثة من لغة موسى – بـ «الشاكيناه»، وبالعبري تُنطق «سكينا» sekina ومعناها «مجد الحضرة الإلهية»، والكلمة في الأدب العبري كما وردت في الترجوم وشروح الربيين تفيد الله نفسه حينما يظهر أو يتراءى أو يسكن مع شعبه.

والأصل العبري الذي اشتقت منه لفظة «شاكيناه» هو «شاكان» shakan يعني «يسكن»، والتي تُرجمت في اليونانية بكلمة επισκιαζειν أي «يسكن» أو «يظلّل» أو «يخيِّم». فالشاكيناه، أي غطاء التابوت، تعني في الأصل اللغوي «مسكن»، وهي نفس الكلمة التي استُخدمت في اللغتين القبطية والعربية للتعبير عن الخيمة أو المظال، فباليونانية σκηνη ، وبالعربية «سَكَن» وجمعها أسْكنة، وهي لا تزال تُستخدم إلى الآن في الكنيسة للتعبير عن الخوارس (انظر كتاب دلال أسبوع الآلام).

ومن هذا التحليل المعنوي اللاهوتي لكلمة «شاكيناه»، نجد أن في التشبيه بين العذراء حاملة المسيح وبين التابوت الحامل للغطاء الإلهي الذي هو الحضرة الإلهية الناطقة كثيراً من الروعة والإبداع!

فغطاء التابوت في وضعه اللاهوتي القديم يفيد مسكن الله مع الناس، الذي هو تفسير لعبارة إشعياء النبي نفسها «عمانوئيل»، وكما كانت كل قيمة التابوت في غطائه السري الإلهي العجيب، كذلك صار في موضوع العذراء.

ب – ثم تقدِّم الثيئوتوكية تشبيه الكاروبين بقوة العلي التي **ظلّلت** العذراء مريم.

والذي يسترعي انتباهنا في هذا التشبيه كلمة «تظلّل» التي جاءت في العهد القديم بخصوص الكاروبين «المظلّلين» على التابوت (خر ٢٥:٢٠)، مرادفة تماماً لما جاء في العهد الجديد بخصوص قوة العلي «تظلّلكِ» (لو ١:٣٥)، حيث يستخدم كلٌّ من العهدين نفس الكلمة العبرية كما جاءت على فم الله لموسى قديماً وعلى فم الملاك جبرائيل للعذراء مريم جديداً.

وكلمة «تظلّلكِ» تُرجمت باليونانية επισκιαξει وهي أصلاً بالعبرية Shakan أي «يسكن» أو «يخيِّم».

وهنا يتضح أن تفسير «قوة العلي تظلّلكِ»، هو أن قوة العلي تحل أو تخيِّم عليكِ. لأن نفس الكلمة استخدمها الإنجيل في وصف السحابة النيرة التي جاءت «وظللتهم» على جبل التجلي (لو ٩:٣٤) رداً على بطرس الرسول الذي كان يريد أن يصنع ثلاث «مظال» أرضية، فإذا بالاستجابة الإلهية أنه دخل ومن معه في الحال داخل «مظلة» إلهية سماوية نيِّرة.

فهنا الثيئوتوكية تقدِّم لنا العذراء وهي بين جناحي الملاك جبرائيل، أثناء البشارة، في حالة وجود داخل مظلة إلهية نيِّرة غير منظورة: «قوة العلي تظللكِ»، إشارة سرية عالية أن العذراء عاشت حياتها في حالة تجلٍّ داخلي ونور بسبب هذه القوة الفائقة.

ولكن لا تكتفي الثيئوتوكية بهذا العمق والغنى والزخم الروحي في وصف حالة العذراء النيِّرة، بل تزيد بقولها إنه كما كان الكاروبان الواقفان على الغطاء يُشيران باستمرار إلى وجود الله، هكذا رأت الثيئوتوكية أن الملاك جبرائيل الذي ظهر للعذراء وقت البشارة ليُعلمها بحقيقة الحضرة الإلهية التي حلت في أحشائها، هو في الواقع واحد ضمن ألوف وربوات من الملائكة المنيرين الذين كانوا يحيطون بالعذراء أثناء الحمل الإلهي.

«وأنت يا مريم ألوف ألوف وربوات ربوات يظللون عليكِ، مُسبِّحين خالقهم وهو في بطنكِ، هذا الذي أخذ شبهنا ما خلا الخطية والتغيير».

وتستعير القطعة الحادية عشرة من نفس الثيئوتوكية هذا الوصف عينه:

«الساروفيم ذوو الستة أجنحة يرفرفون عليكِ بتهليل» (الربع الرابع).

+ [**السلام لمريم المتوشحة بالنور غير المنطفىء**] (القديس ثيئودوتس).

+ [**مريم هي نافذة السماء التي سكب منها الله النور الحقيقي على العالم**] (القديس فولجنتيوس – أسقف روسبا «رُصفا» بشمال أفريقيا – ٤٦٨– ٥٣٣م).

+ [**السلام لمريم المصباح غير المنطفىء قط**] (القديس كيرلس الكبير).

+ [**أيتها الممتلئة نعمة هوذا الخليقة كلها فَرِحة بسببكِ وكل جماعة الملائكة**] (قداس القديس باسيليوس المطوَّل «عند الروم»).

* * *

القطعة الرابعة: يقدِّم لنا النصف الأول الرمزي العذراء أنها هي **قسط الذهب النقي والمن مخفي داخله.**

ثم يفسره النصف الآخر التفسيري: «وأنتِ أيضاً يا مريم حملتِ **في بطنكِ المن العقلي**، الذي أتى من الآب، وولدتِه بغير دنس، وأعطانا جسده ودمه الكريمين فحيينا إلى الأبد».

هنا تقدِّم الثيئوتوكية تشبيهاً آخر للعذراء بالمماثلة مع المسيح، فكما كان القسط الذهب يحمل المن الذي عاش عليه بنو إسرائيل أربعين سنة، هكذا حملت العذراء في بطنها الطاهر الكلمة أي المن العقلي.

وكما عال الله شعب إسرائيل قديماً على المن الذي كان ينزل لهم من السماء يوماً بيوم، هكذا يعول الله الآن شعبه بالمسيح كلمة الله الذي هو الخبز «الحقيقي» النازل من السماء الذي حملته العذراء في بطنها، كما حمل القسط الذهبي قديماً ملء «عُمِر» من المن شهادة للحفظ (خر ١٦:٣٣).

وهنا تبلغ مفاضلة العذراء على قسط المن في هذا التشبيه أقصاه، حينما نذكر قول الرب أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله (مت٤:٤). أو كما شرحها السيد المسيح نفسه: «آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا ... أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم.» (يو ٦:٤٩–٥١)

فالمُلاحَظ أن علاقة العذراء بالمن الجديد أي جسد المسيح ودمه، علاقة أكثر واقعية وأكثر حسِّية من علاقة القسط الذهبي بالمن قديماً. فجسد المسيح ودمه أخذهما من جسد العذراء ودمها وجعلهما واحداً مع لاهوته بالإتحاد.

فإن كان القسط الذهبي قد نال كرامة قديماً بسبب المن الذي وضع فيه بأن جُعل في التابوت أمام الرب تذكاراً لمراحم الله، وللشهادة على معجزة إشباع بني إسرائيل أربعين سنة من السماء، ولحفظ العهد (خر ١٦:٣٣و٣٤)؛ فالعذراء بإعطائها جسداً للمسيح من جسدها صارت مستحقة، بالأولى جداً، أن تكون حسب قولها هي: تذكاراً دائماً: «لرحمة الله إلى جيل الأجيال للذين يتقونه» (لو ١:٥٠)، وشهادة: «القدير صنع بي عظائم» (لو١:٤٩)، ولحفظ العهد لكي «جميع الأجيال تطوبني» (لو١:٤٨). وهذه المقابلة توضحها الثيئوتوكية هكذا:

«قسط الذهب والمن فيه، ذاك وُضع في المسكن شهادة لبني إسرائيل، من أجل الخيرات التي صنعها معهم الرب الإله في برية سيناء، وأنتِ أيضاً يا مريم حملتِ في بطنك المن العقلي الذي أتى من الآب، وولدتِه بغير دنس، وأعطانا جسده ودمه الكريمين فحيينا إلى الأبد. من أجل هذا نعظمكِ».

وقد استعارت الكنيسة من هذا التعبير اللاهوتي لحناً للسيدة العذراء يُقال أثناء التوزيع، كرامة للمن الحقيقي أي خبز الحياة وهو المسمَّى: «بي أُويك – ⲡⲓⲱⲓⲕ»:

«خبز الحياة الذي نزل من السماء، وهب الحياة للعالم؛

وأنتِ أيضاً يا مريم حملتِ في بطنكِ المن العقلي الذي أتى من الآب.

ولدتِه بغير دنسٍ، وأعطانا جسده ودمه الكريمين، فحيينا إلى الأبد».

+ [**مريم العذراء هي الكرمة المثمرة التي من ثمرتها الإلهية أكلنا فانتقلنا من الموت إلى الحياة**] (مار أفرآم السرياني).

+ [**مريم هي فردوس الكلمة**] (القديس باسيليوس).

+ [**أنتِ غذاء الجياع**] (القانون الباراكليسي في قداس القديس باسيليوس).

* * *

القطعة الخامسة: يقدِّم النصف الأول الرمزي العذراء أنها **هي المنارة الذهب النقي الحاملة المصباح المتقد كل حين.**

ثم يفسره النصف الآخر التفسيري على أن العذراء، بما أنها **حملت النور الحقيقي الفائق**، شمس البر الذي ينير كل العالم، الذي هو من النور غير المقترب إليه، الإله الحق من الإله الحق؛ فهي بذلك صارت أعلى من جميع الرتب العلوية.

هنا تشبِّه الثيئوتوكية العذراء «بالمنارة» واسمها العبري Ner، وترجمتها اليونانية كما استعارتها اللغة القبطية «لخْنيَّا» ⲗⲩⲭⲛⲓⲁ أو «حاملة المصباح» «لمباس» ⲗⲁⲙⲡⲁⲥ.

ويُلاحَظ أن سفر الرؤيا كشف المعنى الرمزي للمنارة أنها هي الكنيسة: «المناير السبع التي رأيتها هي السبع الكنائس» (رؤ ١:٢٠)، لأن الكنيسة هي التي تضيء بنور المسيح على العالم (انظر القطعة الخامسة عشر من ثيئوتوكية الأحد الربع الثامن).

والمعروف في التعبير اللاهوتي أن الكنيسة هي جسد المسيح السري، كما هو معروف أيضاً علاقة جسد المسيح السري بالعذراء!

لعل هذا هو أقصى حدود التشبيه الذي تقدِّمه الثيئوتوكية لترفع العذراء مريم إلى وضع سمائي باعتبار أنها حاملة للنور الإلهي أو حاملة لشمس البر، كما تحمل السماء الشمس في وسطها أو كما تحمل القوات العلوية (الشاروبيم والساروفيم) عرش الله. ولكن تستطرد الثيئوتوكية، أن الله بصفته نوراً غير مقترب إليه فكل القوات العلوية لا تملك النظر إليه، إلاَّ أن العذراء أعطته جسداً من جسدها وحملته وهي تعلم أنه هو

النور الحقيقي الإله الحق، لذلك اعتبرت الثيئوتوكية أن العذراء أرفع من القوات السمائية:

«كل الرتب العلوية لا تقدر أن تشبهكِ أيتها المنارة الذهبية الحاملة النور الحقيقي ...لأن الذي في بطنكِ أضاء لكل إنسان آتٍ إلى العالم، لأنه هو شمس البر، ولدتِه وشفانا من خطايانا. من أجل هذا نعظمكِ».

وتشترك أبصالية الأحد في هذا الاعتبار بقولها في الربع الثامن عشر:

«مرتفعة جداً أنتِ أكثر من الشاروبيم، ومكرمة أكثر من الساروفيم».

+ [**مريم هي السماء السرية الجديدة**] (القديس أفرآم السرياني).
+ [**هي السماء الحاملة للاهوت**] (القديس أفرآم السرياني).
+ [**مكرمة أكثر من الشاروبيم وممجَّدة أكثر من السيرافيم**] (القديس يوحنا ذهبي الفم).
+ [**صارت بطنكِ له عرشاً، وجسمكِ احتواه باتساعه الذي يفوق السماء**] (قداس القديس باسيليوس عند الروم).

* * *

القطعة السادسة: يقدِّم النصف الأول الرمزي العذراء أنها هي المجمرة الذهب النقي حاملة جمر النار المباركة.

ثم يفسره النصف الآخر التفسيري: «وأنتِ أيضاً يا مريم حملتِ في بطنكِ **غيرَ المنظور** كلمة الآب الذي أصعد ذاته ذبيحة مقبولة – بخوراً – إلى الله أبيه».

وهنا يلاحِظ القارىء أن المجمرة أي الشورية (الذهبية) المستخدمة في الكنيسة يلزم أن يكون لها غطاء (ذهبي) ينحدر فوق الشورية حتى يخفي الجمر المتقد الذي في داخلها، كما كان اللاهوت الملتهب مخفياً في بطن العذراء.

ملاحظة: يُلاحَظ في جميع هذا التشبيهات التي طُبِّقت على العذراء أنها كانت ذهبية أو مصفحة بالذهب، والذهب النقي رمز الطهارة والنقاوة، ولكن كهبة أو كصفة إلهية، وهذا يقابل اعتقاد الكنيسة أن العذراء كانت نقية وطاهرة بعمل الله – ولكن ليس لأنها وُلدت هكذا، إنما لأن [**الروح القدس حلَّ عليها – فامتلأت نعمة – وقوة العلي ظللتها والابن بلاهوته حل في أحشائها**]، «لذلك أيضاً القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله.» (لو ١:٣٥)

والكنيسة الأرثوذكسية تؤمن أن العذراء عندما حُبل بها من أبويها يواقيم وحنة كان جسدها واقعاً تحت حكم الموت – نتيجة لخطية آدم – الذي اجتاز إلى جميع نسله كقول الكتاب (رو ٥:١٢و١٨).

وكما تُثبته أيضاً ثيئوتوكية الخميس القطعة الثالثة، الربع الخامس:

«يا لعمق غِنَى وحكمة الله، **لأن البطن** (البشري) **الواقع تحت الحكم** وولد الأولاد بوجع القلب صار (في العذراء) ينبوعاً لعدم الموت ...»

ويُخطىء مَنْ يقول إنه: «كان لا بد أن يتم الميلاد من عذراء لم تعرف رجلاً لكي يأخذ المولود جسداً بلا خطية كالجسد الذي خُلق به آدم قبل أن يُخطىء». هذه ليست عقيدة أرثوذكسية كاملة، والصحيح، وما تعتقد به الكنيسة هو أن المسيح أخذ جسداً بلا خطية ليس فقط لأنه وُلد من عذراء لم تعرف رجلاً بل وأيضاً لأن «الذي حُبل به فيها **هو من الروح القدس**.» (مت ١:٢٠)

وتشبيه العذراء بالمجمرة الذهبية أخذ في الكنيسة مكانة واضحة في الطقس، إذ اعتُبر تطبيقاً عملياً لمعجزة النار المشتعلة في العُلَّيقة، وخشب العُلَّيقة لم يحترق. باعتبار أن اللاهوت حلَّ في بطن العذراء ولم يحترق جسدها بسر إلهي.

واسم المجمرة في العبرية «محطا» أو «محطوط»، حينما تكون لوضع جمر النار المشتعلة فقط. ولكن إذا كانت تُستخدم لإصعاد البخور فإنها تُسمى «مقطرت» أو «لبانوت». وتُرجمت باليونانية في الترجمة السبعينية θυμιατηριον Thymiatirion من θυμιαμα أي بخور. وتُعرف بالقبطية «بالشورية» ϣⲟⲩⲣⲓ

وتشبيه مريم العذراء بالمجمرة حاملة جمر النار فقط = «محطا»، يفيد حملها للطبيعة الإلهية عامة.

أمَّا تشبيه العذراء بمجمرة البخور = «لبانوت»، فهنا إشارة إلى **حملها المسيح بصفته الكاهن الأعظم** الذي جاء ليقدِّم بنفسه كفَّارة عظمى لأجلنا بتقديم جسده ذبيحة مقبولة أمام الله الآب يشتمُّها وقت المساء كبخور عطر(٨).

وهنا استفاضت ثيئوتوكية الأحد في وصف العذراء بهاتين الصفتين، أي بصفتها «محطا» أي حاملة لجمر اللاهوت، وبصفتها «لبانوت» أي حاملة الكاهن والذبيحة معاً.

«أنتِ هي المجمرة الذهب النقي حاملة جمر النار المباركة.

---

(٨) إذاً، فليس بمستغرب أن يقدِّم الكاهن البخور أمام أيقونة العذراء، فهي نفسها حاملة للبخور الإلهي الأعظم بسر فائق.

أي الله الكلمة الذي تجسد منكِ ورفع ذاته بخوراً إلى الله أبيه»

(القطعة ٦ – الربع ١و٣).

«هذا الذي أصعد ذاته ذبيحة مقبولة على الصليب عن خلاص جنسنا، فاشتمَّه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجلة»

(القطعة ١٥ – الربع ١٤و١٥).

وتحاول بقية أجزاء الثيئوتوكية وغيرها من التسابيح أن تربط بين رائحة البخور الذكية وبين هارون الكاهن بصفته هو الذي كان يُقدِّم البخور، وبين الزهور العطرة التي خرجت من عصا هارون الجافة بمعجزة(٩) لتشهد باختيار الله لكهنوت هارون:

«دُعيتِ يا مريم العذراء الزهرة المقدَّسة، التي للبخور التي طلعت وأزهرت من أصل رؤساء الآباء (الذي كان قد جفَّ)،

مثل عصا هارون الكاهن التي أزهرت وحملت ثمراً، لأنك ولدتِ الكلمة بغير زرع بشر وبتوليتكِ بغير فساد».

(القطعة ٩ – الربع ١و٢و٣و٤).

+ [**عصا هارون أزهرت والخشبة الناشفة أخرجت ثمرة،**

وسر العصا قد استُعلن اليوم لأن حَمْلاً بدا في أحشاء البتول].

(تسبحة مار أفرآم السرياني على الميلاد: التسبحة الأولى)

---

(٩) «وفي الغد دخل موسى إلى خيمة الشهادة وإذا بعصا هارون لبيت لاوي قد أفرخت. أخرجت فروخاً وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً.» (عد ١٧:٨)

بقية ثيئوتوكية الأحد

وعدد قطعها اثنتا عشرة قطعة، ويعوزها منهج ثيئوتوكية الأحد الأصيل، فلا يجمع بينها منهج الرمز ثم التفسير الصحيح، وإنما هي تكرار للرموز، ويبدو فيها عدم التقيُّد بتفسيرها من العقيدة أو من واقع ما سبق، مما يدل على أنها مضافة على الأصل.

كما لا يوجد فيها جديد إلاَّ تشبيه العذراء بعصا هارون التي أزهرت بدون غرس ولا سَقْي، مثال ما حملت وولدت بدون زرع بشر، واعتبار العذراء أم الأنبياء جميعاً وكل شعب الله(١٠) كما سنراه بوضوح في ثيئوتوكية الثلاثاء، مع ترديد السلام لها مع كل اسم:

١ – من أسماء الآباء القديسين: [لأنها مكرمة جداً عند جميع القديسين ورؤساء الآباء لأنها أتت لهم بمن كانوا ينتظرونه](١١).

٢ – ومن أسماء الأنبياء: [لأنها مكرمة عند الأنبياء الذين تنبأوا من أجله أنه يأتي ويخلِّصنا](١١).

٣ – ومن أسماء الرسل: [لأنها مكرمة عند الرسل لأنها والدة الذي كرزوا به في كل المسكونة](١١).

٤ – ومن أسماء الشهداء: [لأنها مكرمة عند الشهداء لأنه قد خرج منها واضع جهادهم الحقيقي ربنا يسوع المسيح](١١).

(10) Irenaeus, *Adv. Haer.* 4,33,11.

(١١) انظر ثيئوتوكية الخميس القطعة السادسة.

ثيئوتوكيات باقي الأيام

وعددها ست، وجميعها مشحون بتحقيق النبوات عن المسيح وبالتعاريف اللاهوتية وشرحها عقيدياً حسب ما استلمت الكنيسة من الرسل والمجامع، ومعظمها خاص بتجسُّد السيد المسيح وميلاده من عذراء باعتبارها ناحية ارتباط هامة بمديح السيدة العذراء. فكأنما كل تمجيد للمسيح هو فخر للعذراء ويُعتبر في حد ذاته مديحاً للعذراء كأم للرب.

ثيئوتوكية الاثنين

(تحقيق النبوات وتجسُّد المسيح)

هي تسع قطع تحوي خمسة وأربعين رُبعاً، وهي بأكملها عن سر تجسُّد المسيح، ما عدا الربع الأخير من كل قطعة من القطع التسع، ففيه ذكر للعذراء وحملها البتولي بتعبير لاهوتي جميل:

«أشرق جسدياً من العذراء، بغير زرع بشر، حتى خلَّصنا.»

وبها أيضاً ذكرٌ لنبوة إشعياء.

المبادىء اللاهوتية:

١ – يسوع المسيح تجسَّد **وحلَّ «فينا»**، بدلاً من «بيننا».

٢ – بذل ابنه الحبيب ... لأنه غُلب من تحننه **وأرسل لنا ذراعه العالية**(١٢)

(12) Irenaeus, *Adv. Haer.* 5,1, 3 - 5,5,1.

(تعبير لاهوتي قديم عن الأقنومين الثاني والثالث المعتبرَيْن رمزياً «ذراعا الله»).

٣ – الكائن الذي كان والذي أيضاً يأتي (رؤ ١:٨) يسوع المسيح الكلمة.

٤ – تجسَّد بغير تغيير وصار إنساناً **كاملاً**.

٥ – **لم يُفصَ، ولم يختلط، ولم يفترق** بعد الاتحاد بأي شكل كان.

٦ – طبيعة واحدة، أقنوم واحد، شخص واحد لله الكلمة.

٧ – حل قضية الموت: أنت يا آدم تراب وإلى التراب تعود.

٨ – حل الحاجز، قتل العداوة بالكمال، مزق كتاب العبودية، وأعطى الإنسان روح البنوة.

٩ – النور أشرق من العذراء، وبهذا النور نعاين النور.

١٠– الكنيسة هي بيت الملائكة.

هذه الثيئوتوكية وضعت كلها، كما هو واضح من اللُّبش (أي التفسير)، لكي تشرح المقارنة بين آدم وحواء والمسيح والعذراء. وتعتبر هذه المقارنة من وجهة لاهوتية قديمة جداً في الكنيسة، ابتدأ بها القديس بولس في المقارنة بين آدم والمسيح، أما أول من عمل مقارنة بين حواء والعذراء فهو القديس إيرينيئوس(١٣) أبو التقليد الكنسي.

••••••••••••••••••••••••

(13) Ibid. 4,33,11.

ثيئوتوكية الثلاثاء

(عجيبة الحَمْل، والولادة، وسر اللاهوت فيها)

عبارة عن سبع قطع تحوي ثمانية وأربعين رُبعاً، كلها «لحاملة الإله» لتكريم بتوليتها. وتُختَم كل قطعة برُبع عبارة عن تعريف لاهوتي كيف تمّ التجسُّد الإلهي:

«لأنه بإرادته ومسرة أبيه والروح القدس أتى وخلصنا».

وبها **ذكرٌ لنبوة دانيال.**

التشبيهات والمبادىء اللاهوتية:

١ – عالية هي الأعجوبة التي لحبلها وولادتها.

٢ – أنتِ هي السلم الذي رآه يعقوب ثابتاً على الأرض ومرتفعاً إلى السماء والملائكة نازلون عليه.

٣ – أنتِ هي العُلّيقة التي رآها موسى مُتّقدة بالنار ولم تحترق. كذلك نار اللاهوت لم تحرق جسدك.

٤ – هو أيضاً **نزل عليكِ، أيتها الجبل الناطق،** بوداعة ومحبة بشرية **كما نزل على جبل سيناء.**

٥ – وتجسَّد منكِ بغير تغيير بجسد ناطق **مساوٍ لنا كامل وله نفس عاقلة.**

٦ – بقي إلهاً على حاله وصار إنساناً كاملاً.

٧ – حل زلّة آدم، وخلّص مَنْ هلك، وصيَّره قريباً من السموات، وردَّه إلى رئاسته كعظيم رحمته.

٨ – الساكن في النور غير المقترب إليه حل في بطنها تسعة أشهر.

٩ – غير المنظور غير المحدود وَلَدَتْه مريم وهي عذراء.

١٠– مريم هي **الجبل الذي رآه دانيال وقد قُطع منه حجر** (ملأ كل الأرض) الذي هو المسيح دون أن تلمسه يد إنسان البتة.

ثيئوتوكية الأربعاء

(تحقيق النبوات واختيار العذراء)

عبارة عن سبع قطع تحوي واحداً وأربعين رُبعاً، كلها تقريباً «لحاملة الإله» تكريماً لها بسبب حملها الإله وولادته وهي عذراء، وبها تحقيق لنبوات كلٍّ من حزقيال وإشعياء. وتُختم جميع القطع بربع يشرح اختيار الله الآب للعذراء لميلاد ابنه:

«الآب تطلّع من السماء، فلم يجد مَن يُشْبِهكِ، أرسل وحيده، أتى وتجسّد منكِ».

التشبيهات والمبادىء اللاهوتية:

١ – مريم العذراء هي **الباب الذي رآه حزقيال**(١٤) مُغلقاً لا يُفتح ولا يدخل منه إنسان، لأن الرب إله إسرائيل دخل منه فيكون مغلقاً (حز ٤٤:٢).

(١٤) أول مَن استخدم هذا الرمز هو جيروم – انظر كتاب Newmann, *On Doctrine*, p. 106.

٢ – **مدينة الله مسكن جميع الفرحين** (مز ٨٧:٧).

٣ – كل ملوك الأرض يسيرون في نوركِ والأمم في ضيائكِ يا مريم أم الله (**أورشليم الجديدة**) (إش ٦٠:٣).

٤ – أنتِ هي **السحابة الخفيفة** التي ركبها الله: «هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر» (إش ١٩:١)، **السحابة التي دلّتنا على الإله الوحيد الجنس**(١٥).

٥ – الآب صنعكِ، والروح القدس حلَّ عليكِ، وقوة العلي ظللتكِ يا مريم.

٦ – مديح مريم = «الثيئوتوكية» بمثابة عيد بتولي.

٧ – مريم هي **الفردوس العقلي**، والمسيح آدم الثاني (الكلمة) صار فيه.

٨ – مريم العذراء هي معمل اتحاد الطبيعتين اللتين أتيتا إلى موضع واحد بغير افتراق ولا اختلاط.

٩ – مريم هي الخدر المزيَّن للعريس الحقيقي الذي اتحد بالبشرية.

١٠ – مريم هي **عُلّيقة نفسية** ونار اللاهوت لم تحرق شيئاً منها.

١١ – **مريم هي عبدة، وأم، وعذراء، وسماء.**

١٢ – صارت **هيكلاً للواحد** من الثالوث.

١٣ – غير المتجسِّد تجسَّد، والكلمة تجسَّمت، وغير المبتدىء ابتدأ، وغير الزمني صار زمنياً. غير المُدرَك لمسوه، وغير المرئي رأوه.

(١٥) «مريم العذراء هي عمود السحاب الذي كان يسير أمام إسرائيل.» (القديس أمبروسيوس)

ثيئوتوكية الخميس

(البتولية الدائمة وسر امرأة سفر الرؤيا)

وهي عبارة عن تسع قطع تحوي خمسة وستين رُبعاً، وهي «لحاملة الإلـه» تكريماً لها بسبب **حملها الإله وولادته وهي عذراء**، مع شرح نبوات من المزامير ومن ميخا النبي ومن سفر الرؤيا. وكل القطع تُختم بربع يشرح لاهوت المسيح الدائم كما هو قبل أن يصير ابن بشر وبعد أن صار ابن بشر ولا يزال كما هو:

«**لم يزل إلهاً، أتى وصار ابن بشر، ولكنه هو الإله الحقيقي أتى وخلصنا**»(١٦).

التشبيهات والمبادىء اللاهوتية:

١ – **شجرة الحياة هي جسد المسيح ودمه الحقيقيان.**

٢ – المسيح **وُلد جسدياً بغير تغيير ولا تحوُّل.**

٣ – بعد أن ولدته، **لم يحل بتوليتها، وبهذا أظهرها أنها والدة الإله.**

٤ – البطن (البشري) **الواقع تحت الحكم** وولد الأولاد بوجع القلب، صار ينبوعاً لعدم الموت.

٥ – يا للطلقات «الإلهية» العجيبة التي لوالدة الإله الدائمة البتولية، هذه التي اجتمع منها معاً **بتولية بلا دنس وميلاد حقيقي.**

٦ – المسيح واحد من اثنين لاهوت وناسوت.

---

(١٦) مرد ثيئوتوكية الخميس.

٧ – المجوس سجدوا له، وقدَّموا له لباناً كإله وذهباً كملك ومُرًّا علامة على موته المحيي.

٨ – «**عجينة**» **البشرية كاملة بكمالها أعطتها مريم العذراء (جسداً) لكلمة الآب الله الخالق.**

٩ – من مريم العذراء، التي هي ثمرة بطن داود، جاء المسيح ليجلس على كرسي داود ملكاً إلى الأبد.

١٠ – كملت نبوَّتا داود وميخا النبيين، لأنه في أفراته بيت لحم وُلِد المسيح من العذراء.

١١ – المسيح الرب هو واحد من الثالوث، المساوي للآب في الجوهر، طأطأ السموات وأتى إلى بطن العذراء وصار إنساناً مثلنا ما خلا الخطية.

١٢ – مريم هي بمثابة **السماء الجديدة** التي تكلَّم عنها يوحنا في سفر الرؤيا، التي أشرق منها شمس البر.

١٣ – **المرأة التي ظهرت في سفر الرؤيا** المتسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها واثنا عشر كوكباً تكلِّل رأسها هي مريم العذراء.

فالشمس المتسربلة بها هي ربنا يسوع المسيح، والقمر الذي تحت رجليها هو يوحنا المعمدان، والاثنا عشر كوكباً المكلِّلة رأسها هم الاثنا عشر رسولاً.

ثيئوتوكية الجمعة

(كرامة العذراء الفائقة)

وهي عبارة عن سبع قطع قصيرة تحوي سبعة وعشرين ربعاً. وهي أقصر ثيئوتوكية، وكلها تقريباً «لحاملة الإله»، وتكرر الثيئوتوكية اسم العذراء «أم الله». وفيها تفسير لنبوّتي ملاخي ودانيال. وتُختَم جميع القطع بربع يشرح سر الاتحاد المتبادل بين طبيعة اللاهوت وطبيعتنا بواسطة الروح القدس:

«هو أخذ الذي لنا، وأعطانا الذي له، نسبحه ونمجده ونزيده علواً».

التشبيهات والمبادىء اللاهوتية:

١ – مريم أم الله. ⲑⲙⲁⲩ ⲙ̀ⲫϯ

٢ – أشرق لنا من مريم شمس البر والشفاء في أجنحتها (ملا ٤: ٢).

٣ – الملائكة والشاروبيم والساروفيم يكرِّمون مريم العذراء ويمجدونها بسبب أن الجالس على الشاروبيم صار في بطنها، ولأن الذي في حِجْرها هو من تُسبِّحه الملائكة (انظر لُبش الثلاثاء).

وهنا يُلاحَظ أن تكريم القوات العلوية وتمجيدها للعذراء هو بسبب حملها للمسيح الإله شمس البر.

٤ – المسيح هو «عتيق الأيام» الذي رآه دانيال في رؤياه: «لباسه أبيض كالثلج (التجلي)، وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار، بكراته نار متقدة ونهر ناري جرى وخرج من قدامه. ألوف ألوف تخدمه وربوات ربوات وقوف قدامه.» (دا ٧: ٩و١٠)

٥ – هو أخذ جسدنا، وأعطانا روحه القدوس، وجعلنا واحداً معه من قِبَل صلاحه.

٦ – مسك ثديكِ وأرضعتيه اللبن وهو إلهنا ومخلّص الكل!

٧ – مريم العذراء بستان العطر والينبوع الذي خرج منه ماء الحياة المقدَّس(١٧).

٨ – من قِبَلِ صليبه وقيامته المقدَّسة ردَّ الإنسان مرة أخرى إلى الفردوس.

ثيئوتوكية السبت

(السلام للممتلئة نعمة القديسة في كل شيء)

وهي عبارة عن تسع قطع تحوي واحداً وثلاثين ربعاً، وكلها «لحاملة الإله». وهي قائمة على بشارة الملاك جبرائيل لها، وهذا واضح في الربع الختامي لكل قطعة:

«السلام لكِ يا ممتلئة نعمة. السلام لكِ يا مَنْ وجدتِ نعمة. السلام لكِ يا مَنْ ولدتِ المسيح الرب معكِ».

وظاهر هنا **أولاً**: عقيدة «الامتلاء» من النعمة، **ثانياً**: تفسير كلمة «عمانوئيل» «الرب معنا»، وهي ضمن تحية الملاك للعذراء؛ وهي تلقي ضوءاً شديداً على نبوة إشعياء النبي: «ها العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (إش ٧: ١٤؛ مت ١: ٢٣). كذلك تذكّرنا هذه التحية بتحية مماثلة قدَّمها ملاك الله لجدعون عند دعوته لخلاص إسرائيل: «الرب معك.» (قض ٦: ١٢)

---

(١٧) «السلام لمريم الحضن الذي خرج منه ينبوع الحياة.» (القديس ثيئودوتس)

التشبيهات والمبادىء اللاهوتية:

١ – وصف العذراء بأنها «**قديسة في كل شيء**».

٢ – إننا **نطوِّب عظمتها**.

٣ – مِن قِبَلِ **ثمرة بطنكِ** أدرك جنسنا الخلاص.

٤ – من قِبَلِ **صلاحه صالحنا الله** مرة أخرى.

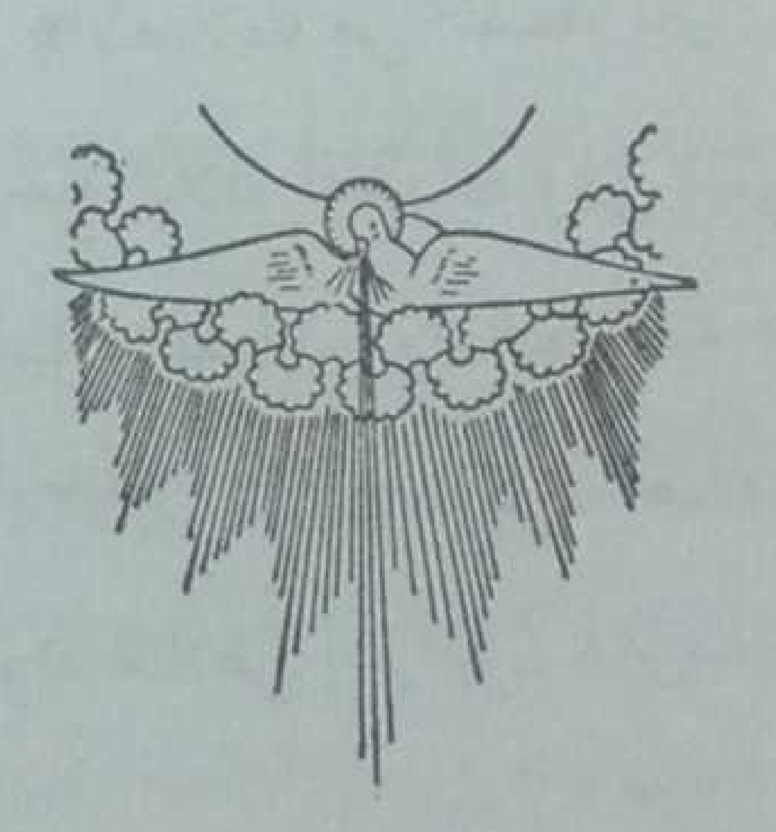
٥ – الوحيد الذي هو من الآب قبل كل الدهور أخلى ذاته وأخذ منكِ شكل «العبد» لأجل خلاصنا.

٦ – صرتِ سماءً ثانية لأنه أشرق منكِ شمس البر.

٧ – يتهلل الفردوس بمجيء الحمل إليه.

٨ – عمانوئيل الذي ولدتيه **هو الذي حفظكِ بغير فساد**.

٩ – **الروح القدس ملأ كل موضع منكِ، نفسكِ وجسدكِ يا مريم أم الله** (الشيرات الأولى).



مركز العذراء مريم
في اللاهوت الأرثوذكسي
من واقع الثيئوتوكيات

أولاً: والدة الإله.	θεοτοκος
ثانياً: دائمة البتولية.	Αειπαρθενος
ثالثاً: أُم النور.	ⲑⲙⲁⲩ ⲙ̀ⲡⲓⲟⲩⲱⲓⲛⲓ
رابعاً: قديسة في كل شيء.	παναγια
خامساً: أُم جميع الأحياء: «سيدتنا».	ⲧⲉⲛϭⲟⲓⲥ ⲛ̀ⲛⲏⲃ
سادساً: شفاعتها.	
سابعاً: تكريمها.	

أولاً: والدة الإله

افتتح القديس كيرلس الكبير بابا الإسكندرية عظته البليغة عن العذراء مريم في مجمع أفسس الذي ترأسه سنة ٤٣١م بهذا السلام:

[**السلام لمريم الثيئوتوكس** (والدة الإله)،

الكنز الثمين الذي وجده العالم،

المصباح غير المنطفىء قط،

تاج البتولية،

قضيب الأرثوذكسية،

الهيكل غير المنهدم،

الموضع الذي احتوى غير المُحوى،

الأم الباقية عذراء](١).

إن هذا ليس مجرد اسم ولا هو لقب تكريمي للعذراء، وإنما هو تعريف لاهوتي يحمل حقيقة حية وإيماناً وتاريخاً وجهاداً عنيفاً ورؤيا في الخلود. والنطق بهذه الكلمة مدخل أساسي للإيمان الأرثوذكسي وبدونه لا يمكن أن يُقبَل أحد في الإيمان. وفي

(1) P. G. LXXVII, 992 b.

انظر لُبش السبت في الأبصلمودية، إذ يحوي هذه الأوصاف عينها مما يسهِّل علينا تحديد زمن تأليفه.

ذلك يعلن القديس غريغوريوس النزينزي:

[**إذا لم يؤمن أحد أن مريم هي «الثيئوتوكس» فهو غريب عن الله**].

(الرسالة لكليدونيوس ١٠١).

فمنذ العصور الأولى للمسيحية ولقب العذراء «والدة الإله» يجري على كل لسان وهذا ما يقوله العلاّمة كليمندس الإسكندري(٢)، حتى وأصحاب المبادىء المتعارضة لم يوجد منهم في العصر الأول للكنيسة مَنْ كان ينكر كرامة العذراء. وقد جاء هذا اللقب في كتابات كثيرين جداً من الكُتّاب والآباء العظام الأوائل، ومنذ قيام مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، فقد ذكره أوريجانوس، وديديموس الضرير، ويوسابيوس القيصري، وألكسندروس بابا الإسكندرية، وأثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير الذي ثبَّته كلقب قانوني، وكيرلس الأورشليمي، وأمبروسيوس، وغريغوريوس النيسي، والنزينزي، وإبيفانيوس أسقف قبرص، وحزقيوس الأورشليمي، ونيلس. وهذه هي أقوالهم عن «والدة الإله»:

١ - يقول المؤرِّخ سوزومين (القرن الخامس) إن العلاّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) لقَّب القديسة مريم بالثيئوتوكس، وورد هذا الاصطلاح بصورة قاطعة في مؤلَّف لأوريجانوس، هو شرح سفر التثنية، في قوله: [والتي كانت مخطوبة فقط دُعيت هنا امرأة كما حدث في حالة يوسف **والعذراء مريم والدة الإله «ثيئوتوكس»**]. ولقد استُخدِم هذا اللقب في مدرسة الإسكندرية لمدة طويلة ليعبِّر عن أمومة العذراء للإله(٣).

(2) *Strom.* vii, 16.

(3) *Hist. Eccl.* 7,32 - Origen, *On Deut.* XXII, 13.

٢ – يدعو ديديموس (٣١٣–٣٩٨م) **العذراء بوالدة الإلـه = ثيئوتوكس** وهو اللقب الذي استخدمته أولاً مدرسة الإسكندرية، **ودعاها أيضاً بالعذراء دائمة البتولية**(٤).

٣ – ويقول المؤرِّخ الكنسي يوسابيوس (٢٦٠–٣٤٠م): [**والإمبراطورة هيلانة التقية زيَّنت المكان الذي وُلِدَت فيه الثيئوتوكس بزينات وتذكارات نادرة**](٥).

٤ – ويقول ألكسندروس بابا الإسكندرية (٣١٢–٣٢٦م): [**وبعد هذا نعرف القيامة من الأموات، الذي كان البكر الأول لها هو ربنا يسوع المسيح الذي فعلاً وبكل تأكيد وليس حسب الظاهر لبس جسداً من مريم والدة الإله: Εκ της θεοτοκου Μαριας**](٦).

٥ – ويقول البابا أثناسيوس الرسولي (٢٩٦–٣٧٣م): [**الأسفار تحوي اعتبارين من جهة المخلِّص، أولاً أنه كان دائماً إلهاً وثانياً أنه ابن. فهو كلمة الآب وبهاء مجده وحكمته الذي بعد ذلك ومن أجلنا أخذ جسداً من العذراء مريم والدة الإله θεοτοκος وصار إنساناً**](٧).

٦ – يقول كيرلس الأورشليمي (٣١٥–٣٨٦م): [**كثيرون يا أحبائي مَنْ يشهدون للمسيح بالحق، الآب من السماء يشهد لابنه والروح القدس**

---

(4) Quast. III, 99.
(5) Euseb., *De Vita Constant.* III, chap. 43.
(6) Quast. III, 19.
(7) *Ad Arian.* 2,29;3,14.

يشهد نازلاً بجسم حمامة، رئيس الملائكة جبرائيل يشهد له حاملاً البشارة إلى مريم، والعذراء الثيئوتوكس مريم تشهد له](٨).

٧ – ويقول القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠–٣٩٥م): [**إن ابن الله اتخذ لنفسه جسداً من العذراء لذلك حقٌّ للعذراء أن تُدعى والدة الإله**](٩). وقد استخدم كلمة الثيئوتوكس خمس مرات في كتاباته.

٨ – ولقد اهتم القديس غريغوريوس النزينزي جداً (٣٢٩–٣٨٩م) بلقب الثيئوتوكس واعتبره المحك الصحيح للأرثوذكسية: [**إن كان أحد لا يؤمن أن القديسة مريم هي والدة الإله «ثيئوتوكس» فهو غريب عن الله**](١٠).

٩ – وإبيفانيوس أسقف قبرص (٣١٥–٤٠٣م) **وضع رسالة بجملتها لتكريم والدة الإله «الثيئوتوكس»**(١١).

١٠ – وحزقيوس الأورشليمي (٤١٢م) طُبع له حديثاً ميمران كبيران مملوءان بالأوصاف اللذيذة جداً عن القديسة مريم العذراء وألقابها، **أحدهما عن البشارة والآخر عن والدة الإله «الثيئوتوكس»**(١٢).

١١ – وهذا ما يقوله القديس أغسطينوس (٣٥٤–٤٣٠م): [**عذراء وهي حامل، وعذراء وهي والدة، وعذراء وهي مائتة Virgo**

---

(8) *Cat. Lact.* X, 19.
(9) *De Virgin* 13.
(10) *Ep.* 101,4 - 6.
(11) *In Laudes, S. Mariae DeiPara.*
(12) *De Sancta Mariae Deipara,* Mg: 93, 1453 - 1460, 1460 - 1468.

concipiens, Virgo pariens, Virgo moriens](١٣).

١٢ – ويقول القديس كيرلس الكبير (٤١٢–٤٤٤م): **[حيث أن العذراء القديسة ولدت حسب الجسد، الله المتحد بالجسد، من أجل هذا السبب نقول عنها إنها «والدة الإله»، ثيئوتوكس، ليس أن الكلمة أخذ بدايته من الجسد، حاشا لأنه موجود منذ البدء: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». وهو خالق العالم سرمدي مع الآب، ولكن، كما سبق وقلنا، إذ أنه اتحد شخصياً بطبيعة الإنسان فإنه سمح أيضاً أن يولد بالجسد من رَحْمِها]**(١٤).

١٣ – كذلك يقرر القديس كيرلس الكبير أنه لم يستحدث هذه التسمية بل هي تقليد قديم سارٍ منذ البدء عند الآباء: **[هذا هو التعليم الذي تفرضه الأرثوذكسية في كل مكان بكل تدقيق وإلى هذا الحد كان يتمسَّك به آباؤنا القديسون، لذلك كانوا واثقين في تلقيبهم العذراء القديسة والدة الإله «ثيئوتوكس»، ليس لأن طبيعة الكلمة أو اللاهوت أخذ بدايته من العذراء القديسة، لكن بما أن جسده المقدَّس الحاوي نفساً عاقلة قد وُلِد منها، وهذا الجسد كان متحداً بشخص الله الكلمة، لذلك قيل عنه أنه «ولِدَ جسدياً»]**(١٥).

وكلمة «ثيئوتوكس» لا تستحدث أي عنصر جديد في الإيمان، وإنما تجمع شمله

(13) *Cat. Rud.* 40.
(14) *Ep.* 17, 11.
(15) *Ep.* 4.

في تعبير يحميه من أي التباس أو تأويل، فهي كلمة قاطعة استخدمتها الكنيسة قبل عصور المجامع ثم أقرَّها المجمع الثالث بأفسس، لتحدد مفهوم طبيعة المسيح المتحدة من اللاهوت والناسوت بدون تغيير، حيث لم يكن موضوع الحوار بخصوص «الثيئوتوكس» يدور حول العذراء مريم وإنما حول طبيعة المسيح بالذات. فكلمة «الثيئوتوكس» أي «والدة الإله» ليست إذاً لقب شرف للعذراء، وإنما عقيدة لاهوتية تخص طبيعة المسيح المولود من العذراء لاهوت وناسوت متحدان في شخص واحد أم لا؟

ومن هنا يتضح بصورة قاطعة أن ما يخص العذراء مريم يدخل ضمن عقيدة الإيمان المسيحي بالضرورة، لا مناص. هكذا نرى أن «الثيئوتوكس» كلمة عميقة تعتبر في العقيدة الأرثوذكسية مدخلاً رسمياً للإيمان المستقيم، وأي محاولة للتخلُّص من هذه الكلمة يخلخل الإيمان المسيحي من أساسه.

وبالتالي نرى أن المدخل الوحيد لفهم شخصية العذراء مريم فهماً سليماً، هو من جهة طبيعة المسيح المتحدة من اللاهوت والناسوت المولودة منها. فمريم العذراء في الحقيقة عنصر أساسي في التجسُّد: **«وتجسَّد من الروح القدس ومن مريم العذراء»** (قانون الإيمان).

إذاً، فمحاولة فهم قداسة العذراء أو تكريمها كشخصية مستقلة عن المسيح شيء مستحيل، لأن طبيعة المسيح إن كانت قد أصبحت قادرة على أن تجذب إليها البشرية بدالة العنصر البشري الذي فيها: «إذ قد تَشارَكَ الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما ... من ثم كان ينبغي أن **يشبه إخوته في كل شيء**» (عب ٢: ١٤و١٧)، فبالأولى جداً تصبح «الأم» التي أعطته من لحمها ودمها هذا

العنصر البشري الذي في طبيعته الكاملة، القائم بها حتى الآن وإلى الأبد، **ذات اتصال دائم ووثيق به.**

ولو أننا نؤمن إيماناً قاطعاً أن هذه الصلة الدائمة الوثيقة التي بين العذراء الأم والمسيح الإله الابن، لم تبلغ أَوجَها المستحق التكريم الكلّي إلاّ بعد قبول مريم العذراء حلول الروح القدس عليها مرة أخرى يوم الخمسين ونوال قوة من الأعالي أيضاً والامتلاء مرة أخرى من النعمة للتأهيل الجديد **للإتحاد بجسد المسيح السري.**

لذلك لا يغيب قط عن ذهننا الأرثوذكسي ونحن نقدّم التكريم لمريم العذراء، أن هذه الكرامة إنما هي قائمة ودائمة بسبب المسيح الذي أخذ جسده منها «كأم» بفعل المحبة، ثم بسبب المسيح الذي اتحدت هي به «كإبنة» بفعل الإيمان والرجاء: «اسمعي يا ابنتي وانظري وأميلي أُذنيكِ وانسي شعبكِ وبيت أبيكِ، فيشتهي الملك حُسنكِ لأنه **هو سيدكِ** فاسجدي له.» (مز ٤٥: ١٠و١١)

وهكذا تحمل لنا كلمة «الثيئوتوكس» فعل محبة من الله حقيقية قادرة على التجسُّد، وفِعْلَي إيمان ورجاء إنسانيين قادرين على الإتحاد بالطبيعة الإلهية، أفعال ثلاثة متجسِّمة في شخص مريم العذراء. لذلك نرى أن كلمة «الثيئوتوكس» والدة الإله لا تقف عند حدود العقيدة الفكرية، وإنما تغطّي حاجة الإنسان القلبية من محبة الله لنا في أعلى صورها ومن الاستجابة لهذه المحبة بالإيمان والرجاء في أكمل غايتهما.

ولكن كنيستنا ترى أنه بالرغم من كل هذا، فالثيئوتوكس أو الأمومة الإلهية التي حازتها العذراء بولادة المسيح الأقنوم الثاني المتجسِّد، لا يؤهِّلها بأي حال من الأحوال أن تُدعى شريكة في عملية الفداء والخلاص من أي وجه، لأن ذلك يستلزم قطعاً طبيعة إلهية. أمّا طبيعة مريم العذراء فبشرية، ظلّت محفوظة بالنعمة تنتظر الفداء

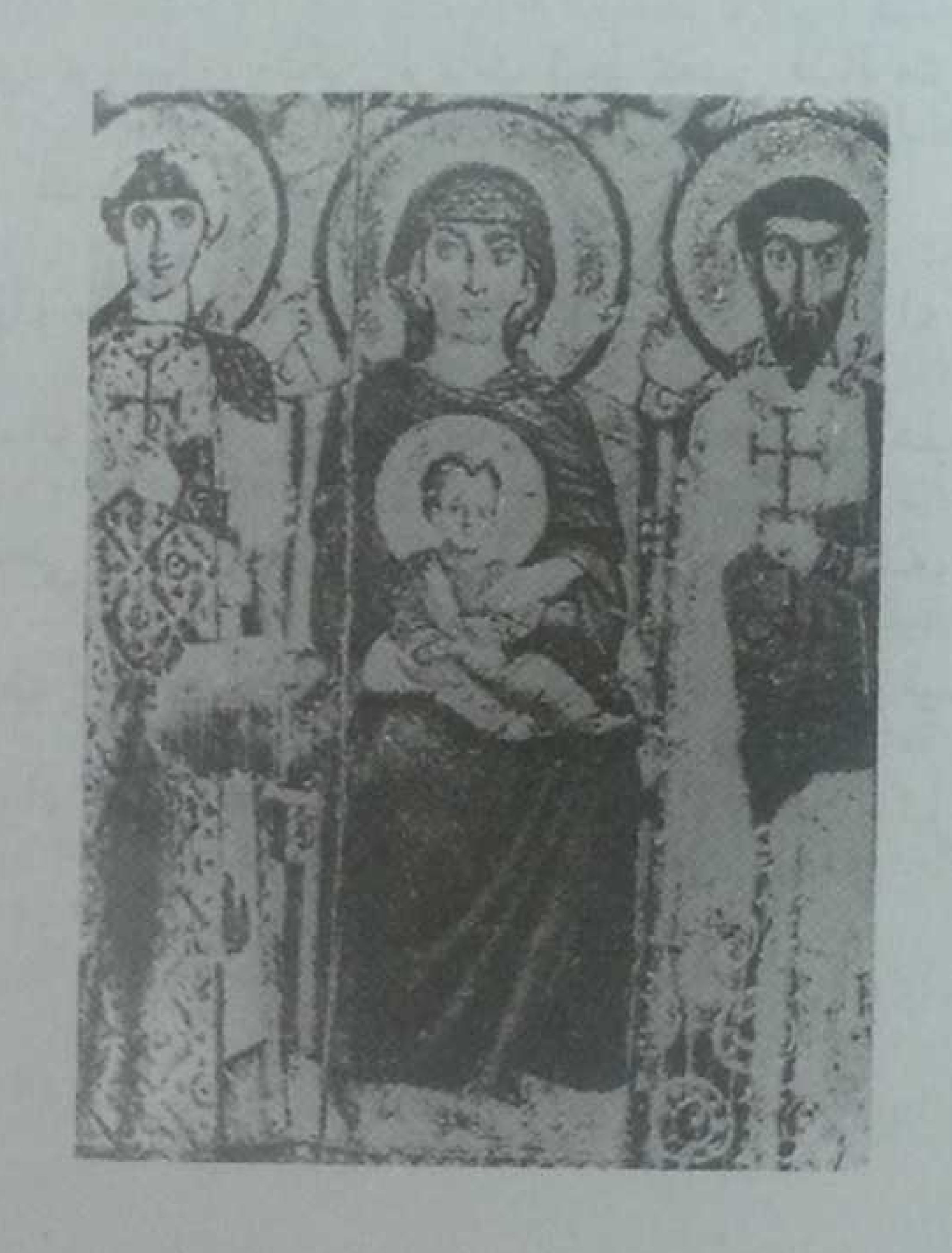
والخلاص والقيامة إلى يوم الخمسين بفعل إيمانها وصلاتها وحلول الروح القدس الناري عليها وشركتها مع التلاميذ في الجسد والدم بحالة اتضاع «كأمة الرب» أي عبدة.

إذاً، فالثيئوتوكس في اللاهوت الأرثوذكسي ليست فادية ولا مُخلِّصة، ولكنها مفدية ومُخلَّصة، وبذلك صارت أمومتها عندنا مكرمة جداً وذات شفاعة أكيدة.

ومار أفرام يمجّدها إذ يرى أنها وُلِدت ولادة ثانية بالمعمودية، بالماء والدم، وهو يقدّم أنشودة التسبيح هذه بفم العذراء نفسها مخاطبة ابنها وهي تقول:

[**يا ابني الذي أعطى أُمه ميلاداً ثانياً من الماء، لأني أنا أختك من بيت داود أبينا كلينا، وأنا أيضاً أمك لأني حملتك في أحشائي، وأنا ابنتك من الماء والدم اللذين بهما قد اشتريتني وعمّدتني**].

(التسبحة الحادية عشرة – صفحة ٢٥٤).



ثانياً: دائمة البتولية

كلمة عذراء بالعبرية تأتي بنطقين:

النطق الأول: بتولة Betulâ.

والنطق الثاني: علما Âlma.

أمّا كلمة «**بتولة**» فتعني فتاة «عذراء منفصلة» لم تعرف رجلاً قط، وتُترجم باليونانية (بارثينوس = παρθενος).

أمّا كلمة «**علما**» فتعني فتاة عذراء ناضجة كاملة الأنوثة لم تُنجب أولاداً. ولكن يُحتمل أن تكون مخطوبة لرجل، ومرادفها باليونانية neanis νεανις، التي ننطقها بالعربية ننوسة (أي عروسة)، ولكن لم تأتِ قط بمعنى فتاة متزوجة لا في الكتاب المقدَّس ولا في أية كتابات أخرى من أي نوع.

وفي سفر إشعياء جاءت العذراء بالنطق الثاني «**ها العذراء "علما" تحبل** وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل» (إش ٧: ١٤)، لذلك فقد اعتُبرت هذه الآية النبوية منذ العصر الأول المسيحي عند كافة الآباء، بل وفي الإنجيل نفسه، أنها نبوة مخصصة لمعجزة الميلاد البتولي للمسيح: «وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل: **هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً**، ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا.» (مت ١: ٢٢و٢٣)

وفي الأصل العبري للآية كلها كما جاءت في سفر إشعياء يبرز معنى ضمني، وهو أن كلمة «العذراء» جاءت كصفة نوعية مستديمة لأُم عمانوئيل، إذ يُلاحظ القارىء أن كلمة «عذراء» جاءت معرَّفة بـ «الْ» ... «هوذا العذراء ...».

فكلام إشعياء النبي كما سجله الوحي يفيد، في التعبير اللغوي الدقيق، أن إشعياء كان يتكلَّم وهو يرى حالة قائمة أمامه: عذراء معيَّنة تحمل ثم تلد ابناً، وهي عذراء!

فالمنظر الرؤيوي يسجِّل ثلاثة أحوال متتابعة متصلة:

حالة عذراوية، وحالة حَمْل ثم ولادة، حالتان غير منفصلتين.

ومجيء نبوة إشعياء بهذا التعبير الدقيق المحدد لدوام بتولية العذراء وهي حاملة ووالدة لعمانوئيل، لا يدع أمام حقيقة ما تم في بيت لحم أية ضرورة لتوكيد أو برهان. فالأمر دقيق وحساس إذ أن بتولية الحمل والولادة تنصبُّ من ناحية أخرى على ألوهية المسيح. فمعجزة دوام بتولية العذراء متعلقة أساساً بقداسة الحمل قداسة فائقة للوصف، وقداسة الميلاد قداسة فائقة للعقل، وقداسة المولود قداسة فائقة للطبيعة: «فلذلك أيضاً القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله» (لو ١: ٣٥). والآية أو المعجزة في الواقع ذات طرفين متعلق أحدهما بالآخر، فلأن العذراء لا يمكن أن تحبل وهي عذراء إلاَّ من الله، لذلك فالمولود لا يمكن أن يكون إلاَّ ابن الله.

هنا واضح جداً أن دوام البتولية مرتبط ارتباطاً كلياً بنوع المولود. فدوام البتولية جزء لا يتجزأ من حقيقة التجسُّد.

والتجسُّد متعلق تعلقاً جوهرياً بدوام بتولية العذراء.

وهذه الحقيقة والعقيدة اللاهوتية يبرزها الوحي بصورة رائعة في آية إشعياء النبي، إذ يجعل طرف الآية الأولى عذراء تحبل، وطرف الآية الثاني المترتب عليه العذراء تلد، فيصير بالنتيجة ابن العذراء هو نفسه «الله معنا.» (مت ١: ٢٣)

ومن الأمور المدهشة حقاً والتي تحتاج إلى **تدقيق** وإمعان، أن إشعياء لم يستخدم في نبوته كلمة «بتولة» Betulâ بل استخدم كلمة «علما Âlma»، مع أننا كنّا نتوقع ببساطة أن يستخدم كلمة «بتولة» لأنها أكثر تمادياً في البعد عن أي التباس أو شك، إذ كلمة «علما» تفيد أنه أصبح للعذراء علاقة خطوبة بآخر، ولكن اختيار إشعياء لكلمة «علما Âlma» هو في الوقع أكثر ضماناً للمعنى النبوي وأكثر إعجازاً من حيث وصف حقيقة ما سيتم فعلاً.

فلو كان إشعياء قال إن «البتولة» تحبل وتلد لكان ذلك مخالفاً للواقع، لأنه معروف أن مريم العذراء كانت مخطوبة ليوسف المحسوب رجلها أو زوجها «îš إيش بالعبري» (مت ١:١٩). والعذراء المخطوبة لرجل هي من حيث التعبير العبري Âlma وليست Betulâ، ولذلك يصح أيضاً أن يُقال لها امرأة Išša = إيشًا (زوجة بالعبري) وهي لا تزال عذراء أثناء خطوبتها، وهذا قد حدث بالفعل فالملاك قال ليوسف: «يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم **امرأتك**.» (مت ١:٢٠)

وواضح جداً من اختيار الوحي الإلهي على فم إشعياء النبي لكلمة «علما» بالذات، أنه يريد ضمان معجزة الحمل والميلاد، لأن العذراء البتولة التي هي وحدها ولم تصر بعد تحت وصاية رجل كخطيب لها، يمكن إذا حبلت أن تصبح تحت الريبة والشك، أمَّا العذراء «علما» فهي بعكس ذلك تماماً، إذ أنها مخطوبة لرجل وقد صارت تحت رقابة، فحَبَلُها أمر إمَّا أن يكون مستحيلاً أو معجزاً فائقاً للطبيعة.

ولذلك نجد أن الله حينما تكلَّم على فم إشعياء وقبل أن يعطي مضمون الآية التي اختارها لتكون معجزة – نجده يتمادى في وصف صعوبتها واستحالتها: «ثم عاد الرب فكلَّم آحاز قائلاً: اطلب لنفسك آية من الرب إلهك **عمِّق** طلبك أو **رفِّعه إلى فوق**.» (إش ٧: ١٠و١١)

والعجيب حقاً أن تتم بالفعل مع يوسف ومريم كل هذه الاحتياطات التي لَمح إليها الوحي في سفر إشعياء وجمعها كلها في كلمة «علما»، فنجد أن العذراء مريم تُخطَب فعلاً ليوسف وتصير «علما Âlma»، وتُدعى أيضاً «إيشًا» أي «امرأة» ليوسف، ويُدعى يوسف بالنسبة لها «إيش» أي رجلها، وذلك لضمان تكميل الحبل الإلهي تحت الرقابة والرعاية والشهادة الدقيقة، حيث يظهر يوسف في رواية الإنجيل غيوراً وحساساً جداً لحبل العذراء، ففي اللحظة التي لمح فيها أن العذراء حامل، وهو لم يعرفها بعد، صمَّم في الحال أن يأخذ موقفاً حاسماً تجاهها، مما يشير إشارة بالغة إلى أهمية دور يوسف كشاهد غيور للحبل البتولي. وهنا تظهر حكمة الله في اختيار إشعياء كلمة «علما» كنبوة سابقة، كل هذا يدخل بدقة مدهشة داخل خطة الله منذ البدء في اتخاذ الاحتياط لإعلان قداسة ومعجزة الحمل وولادة القدوس تحت رقابة وشهادة خطيب غيور!!

لذلك كم نحن مندهشون من انطباق دقائق نبوَّة إشعياء على حوادث الميلاد العجيب في كشف وإعلان دوام بتولية العذراء.

وهذا الاسم αειπαρθενος استُخدم في الكنيسة منذ القدم للتعبير عن بقاء العذراء بتولاً قبل الحبل، وفي الحبل، وبعد الميلاد أيضاً.

ومن الآباء الأوائل الذين نادوا وعلَّموا وشهدوا بدوام بتولية العذراء، القديس إبيفانيوس والقديس جيروم والعلاَّمة ديديموس الإسكندري.

وقد استخدم هذا الاصطلاح العقيدي كليمندس الإسكندري، حيث يذكر أن هذه الحقيقة معلومة بتحقيق ويعتبرها هو شخصياً صادقة(١٦). والقديس أثناسيوس

---

(16) *Strom.* VII, 16.

الرسولي يستخدم هذا الاصطلاح أيضاً(١٧)، والقديس أغسطينوس يؤكد أيضاً على البتولية الدائمة بقوله إنها حملت وهي بتول وظلت كذلك بعد الولادة(١٨).

وكذلك القديس يوحنا ذهبي الفم يذكر هذه الصفة الإعجازية التي للعذراء باعتبار أنها حقيقة معترف بها وثابتة ولا تحتاج إلى نقاش:

[نحن نجهل أموراً كثيرة وعلى سبيل المثال كيف وُجِدَ غير المحدود في رحم العذراء؟ ثم كيف الذي يحوي كل الأشياء حملته امرأة؟ ثم العذراء كيف **ولدت وهي كما هي عذراء؟؟** = Τικτει η παρθενος και μενει παρθενος](١٩)

والقديس غريغوريوس النيسي يتمسَّك بهذا التعليم قائلاً:

[إن رحم العذراء الذي استُخدم لميلاد بلا دنس هو مبارك لأن الميلاد لم يُبطل أو يحل عذراويتها، كما أن العذراوية لم تُعِقْ أو تمنع ذلك الميلاد العالي، كما أُعلن عنه في الإنجيل: «طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما!!» (لو ١١:٢٧)](٢٠)

والعلاَّمة الإسكندري ديديموس الضرير يقول:

إنها عذراء في الحمل وبعد الميلاد = In Partu & Post Partum ويدعوها الدائمة البتولية αει παρθενος(٢١).

(17) *Contra Arianos* 2, 70.
(18) *Cat. Rud.* 40.
(19) Quast. III, 476.
(20) *Ibid.* 289; *De Virg.* 19.
(21) *Contra Arian.* 2, 70.

والكتاب المقدس يشهد أن مريم بقيت عذراء بتولاً بعد حملها المسيح: «لمَّا كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حُبلى من الروح القدس.» (مت ١٨:١)

ولكن لعل أعظم شهادة تؤكد كل ما قبلها وما بعدها، هي شهادة لوقا الرسول لأنه معروف أنه نقلها عن العذراء نفسها، وهو يقول في إنجيله: «فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليُكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حُبلى.» (لو ٢: ٤و٥)

وإذا عدنا إلى أول إنجيل لوقا نقرأ أن لوقا الإنجيلي اعتمد في تدوين حقائق إنجيله والوثوق منها على الرجوع إلى مصادرها، وبهذا نستطيع أن نقرر أن مصدر هذه الحقيقة الشخصية الخاصة هي القديسة مريم نفسها.

وليلاحظ القارىء أن قصد القديس لوقا من تدوين هذه الكلمات: «امرأته المخطوبة وهي حُبلى»، إشارة بليغة غاية في الاختصار وبُعد المرمى لتنبيهنا أن العذراء مريم بالرغم من أنها اعتُبرت امرأة يوسف حسب توصية الملاك: «لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك. لأن الذي حُبِلَ فيها هو من الروح القدس» (مت ٢٠:١)، فهي ظلت مرتبطة مع يوسف بعقد الخطوبة فقط، وهذا يعني أنها ظلت عذراء كما هي كل أيام حياتها. وفي هذا تلميح ضمني محتشم أن ابن الله كما دخل أحشاءها، هكذا خرج بسرٍ يفوق الطبيعة، أي كما كان الحبل بتولياً هكذا كان الميلاد بتولياً أيضاً.

وقد صار ذلك عقيدة مدعّمة بالقانون الكنسي بسلطة المجامع: «وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء» (قانون الإيمان)، وبالتالي أصبح جزءاً لا يتجزأ من الإيمان المسيحي الذي تعيشه الكنيسة.

ولكن ليس مضمون البتولية في اللاهوت الأرثوذكسي عبارة عن قامة بشرية معينة أو بمجرد حالة جسدية، ولكنها قامة روحية قبل كل شيء، وحالة داخلية تتعلّق بأعماق النفس: «أما الجسد (وحده) فلا يفيد شيئاً» (يو ٦:٦٣)، كقول الرب. فموضوع البتولية الدائمة ليس هو منطق حوار جسدي محض يتخذ أصوله من ولادة مريم وحفظ جسدها وحسب، إنما يتخذ كيانه أيضاً من تأصل حالة عفة سرية إرادية وترفُّع عن أية شهوة جسدية أو رغبة حسية أنانية، مع هدوء في القلب والعقل وتكامل في العواطف. وفي كلمة واحدة، هو التمتع بحالة «نقاوة قلبية» بفعل النعمة المالئة للكيان الداخلي: «السلام لكِ أيتها الممتلئة نعمة» (لو ١:٢٨)، وهي الحالة الفائقة التي تؤهل الإنسان لرؤية الله: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله» (مت ٥:٨). هذه الحالة باطنية بصفة ممتازة ويعبِّر عنها الآباء بحالة «حرية من الآلام»، حيث «الآلام» في المفهوم الآبائي هي أمراض النفس وميولها الخاطئة. لذلك تضع الأبصلمودية في الثيئوتوكية صفة مرادفة «للعذراء كل حين» إنما تصفها وتشرحها على مستوى روحي بديع إذ تسميها: «القديسة كل حين = ⲉⲑⲟⲩⲁⲃ ⲛ̀ⲥⲏⲟⲩ ⲛⲓⲃⲉⲛ».

فدوام البتولية هو عند الآباء الذين وضعوا الثيئوتوكية بمثابة قداسة كل حين!! أو دوام القداسة.

فالعذراء البتول كانت متوجهة دائماً بكل عواطفها نحو الله، مستجيبة بحريتها لقيادة النعمة وضبط الروح وحكم المشيئة العليا، بسرور بغير انقسام داخلي أو تمزُّق نفسي ناتج عن ميول أخرى مضادة.

فالبتولية عند العذراء كانت تملأ كيانها العقلي والقلبي والنفسي عن مشيئة حرة، وأيضاً مع الجسد. والعذراء كرست كيانها البتولي لله دفعة واحدة وقدّمت نفسها كلاًّ لله: «هوذا أنا أَمَة الرب» (لو ١:٣٨) في رضا وتسليم نهائي يفيد حالة بتولية ستدوم إلى ما لا نهاية، لأن دعوة الله للعذراء واختيارها لتحبل من الروح القدس وتلد ابناً للعلي، وهي عذراء كما هي، هو بواقع الأمر حالة التصاق بالله: «روح واحد» أو هي زيجة بتولية على مستوى إلهي لا يمكن الرجوع فيها أو الانفصال: «لأن القدير صنع بي عظائم» (لو ١:٤٩). وحالة المولود منها «يكون عظيماً وابن العلي يُدعى» (لو ١:٣٢) يفيد مدى التهيئة اللازمة لا للحبل به فقط بل وميلاده وتربيته، أي أن البتولية إن كانت لازمة كحالة روحية داخلية للعذراء لتحبل «بكلمة الله»، فالبتولية بهذه الصفة أيضاً وبالضرورة لازمة لميلاد «قدوس الله» وإرضاعه وتربيته ... «غير المتزوجة (العذراء) تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً.» (١كو ٧:٣٤)

إن كيان المسيح الإلهي وحالة طهارته وبتوليته الفائقة عن الوصف، وهو ابن، تستلزم أمومة مشابهة بصورة ما على أي حال. وإن بمجرد التأمل الصامت في العذراء مريم وهي تُرضع ابنها الإلهي أمر يهز الكيان الروحي داخل الإنسان ويوقف المتأمل على حافة الفكر، حيث يعتري العقل صمت حتمي يعجز الإنسان عن الامتداد خلفه خطوة واحدة، أليس هذا اتصالاً مباشراً بين ما هو إلهي وما هو إنساني؟ كم يستلزم هذا الاتصال والتقابل من طهارة وتبتُّل روحي داخلي؟

إن رؤيتنا الروحية الكاملة للمسيح تجعلنا نثق في البتولية الدائمة «لوالدة الإله» ونكرمها من هذا القبيل كرامة فريدة وفائقة.

والقديس أغسطينوس يقول: [وأنتَ ينبغي أن لا تشك أن العذراء تحبل وتلد، إذا كنت تريد أن تؤمن أن الله يولد](٢٢).

ولذلك كم هو حق وكريم وجدير بكل إنسان أن يشهد لبتولية العذراء الدائمة ويطوِّبها من أجل هذه المعجزة والآية العجيبة والفريدة، لأن في الشهادة لبتولية العذراء وتطويبها تقرُّباً طبيعياً وتلقائياً للمولود منها عمانوئيل نفسه. لأن من المستحيل (طبقاً للواقع) أن يولد عمانوئيل فيصير «الله معنا» إلا عن طريق هذا السر البتولي!

ومن المحقق أن دعم عقيدة التجسُّد الإلهي، أي ألوهية المسيح، يرتكز أول ما يرتكز على معجزة ميلاد المسيح الفائقة للطبيعة المتضمَّنة في دوام بتولية العذراء.

لذلك فمن الوجهة الروحية الخالصة نجد أن تكريم بتولية العذراء هو المدخل السري لتمجيد ألوهية المسيح.

وواضح أن رواية كلٍّ من إنجيل لوقا ومتى لقصة الميلاد المعجزي تضع نبرة شديدة على حقيقة بتولية العذراء، باعتبار أنها المنطلق الأساسي لحقيقة التجسُّد الإلهي وبداية الخلاص الذي عزم الله على تحقيقه بنفسه للإنسان.

+ ذكصولوجية عيد الميلاد: الربع الحادي عشر:

[بتولية غير منحلة وميلاد كامل].

+ ثيئوتوكية الأربعاء: القطعة الخامسة، الربع الثالث:

(22) NPNF vol. III, *Faith of things not seen*, 4.

[تعالوا يا جميع الشعوب لنطوِّبها لأنها صارت أماً وعذراء معاً].

+ ثيئوتوكية الخميس: القطعة الثالثة، الربع الرابع:

[وأيضاً بعد أن وَلَدَته لم يحل بتوليتها وبهذا أظهرها أنها والدة الإله].

+ ثيئوتوكية الخميس: القطعة الخامسة الربعان الثاني والثالث:

[هذه التي منها اجتمع معاً بتولية بلا دنس وميلاد حقيقي. لم يسبق الميلادَ زواجٌ، ولم يحل الميلاد بتوليتها، لأن الذي وُلِدَ إله!!].

+ ثيئوتوكية السبت: القطعة السابعة، الربع الأول:

[دُعيت أم الله الملك الحقيقي، وبعدما ولدته بقيت عذراء بأمر عجيب].

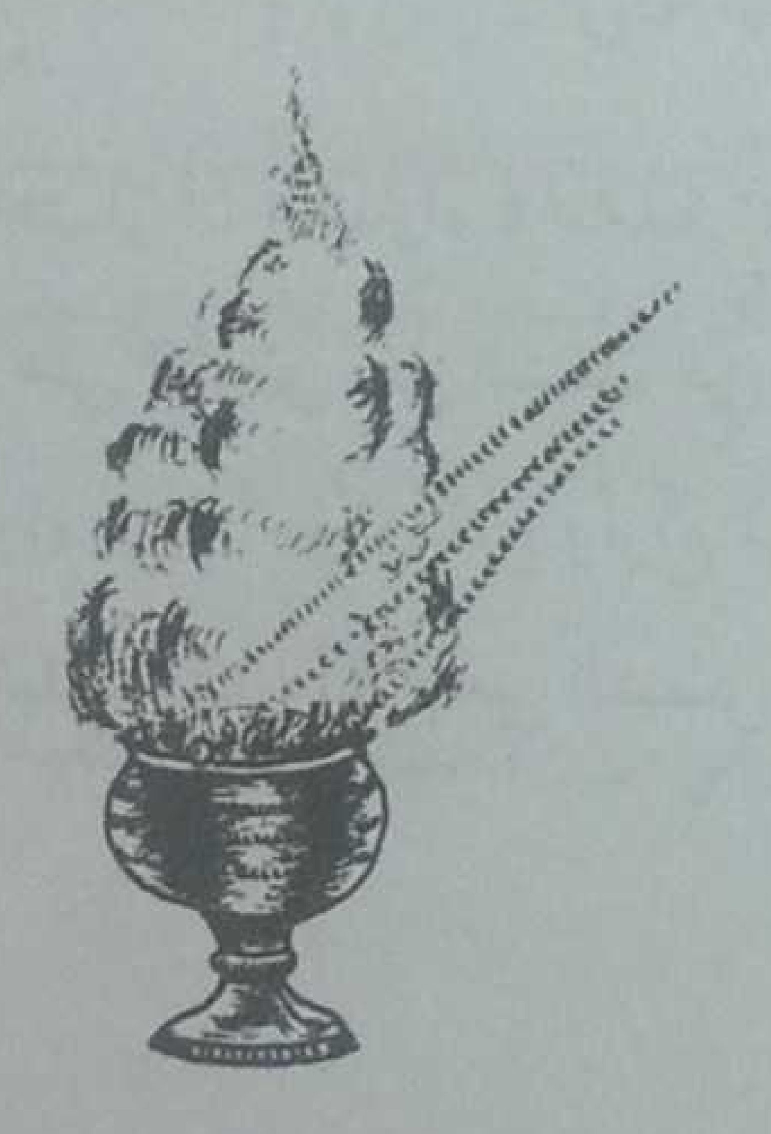
+ ثيئوتوكية السبت أيضاً: القطعة السابعة، الربع الثاني:

[عمانوئيل الذي ولدِته هو حفظكِ بغير فساد وبتوليتكِ مختومة].

وفي ختام الحديث عن بتولية العذراء، نقدِّم هذا الربع من ثيئوتوكية الثلاثاء:

[عالية هي الأعجوبة التي لحبلها وولادتها، هذا شيء يفوق النطق، عظيم هو مجد بتوليتكِ يا مريم العذراء الكاملة].

(القطعة الأولى).



ثالثاً: أم النور

لقب كنسي للعذراء مريم

+ **«الله نور والنور أشرق من مريم»**

(ثيئوتوكية الاثنين).

+ **«سماء ثانية على الأرض»**

(ثيئوتوكية السبت).

+ **«مرتفعة أنتِ جداً أكثر من الشاروبيم، ومكرَّمة أكثر من السيرافيم»**

(ابصالية الأحد).

حينما لقَّب مجمع أفسس العذراء القديسة مريم «بأم النور الحقيقي»، فتح المجال للتأمل في عجيبة هذه العذراء بصفتها حاملة لشمس البر الذي أشرق جسدياً من العذراء حسب تعبير الثيئوتوكية.

وهنا تتجه التسبحة إلى اعتبار أن العذراء «حاملة شمس البر» أو «أم النور الحقيقي»، هي بمثابة سماء ثانية على الأرض مثل السماء التي تحمل الشمس في الجَلَد فوق رؤوسنا. ولكن، هنا العذراء مريم أجلُّ وأكرم وأرفع من سماء الجَلَد، بقدر ما أن المسيح شمس البر والنور الحقيقي أرفع وأكرم من الشمس التي في الجَلَد التي تضيء فوقنا.

ثم تنتقل التسبحة إلى اعتبار العذراء كرسياً أو عرشاً مقدساً للاهوت على الأرض! إذاً، فهي بمثابة الشاروبيم الذين رآهم حزقيال النبي ككرسي أو عرش لله (حز ١و٥). فإن كان الشاروبيم جليلاً لأنه كان يحمل اللاهوت فوقه، فكم تكون العذراء التي حملت اللاهوت في بطنها!! بل وأعطته من جسدها ودمها ولبنها؟

وتشترك التسبحة المعروفة بذكصولوجية(٢٣) باكر للعذراء مع الثيئوتوكية في هذه الصفة التي للعذراء مريم فتقول:

+ «أنتِ **أم النور** المكرَّمة والدة الإله حملتِ الكلمة غير المحوي».

+ «السلام للسماء الجديدة التي صنعها الآب وجعلها موضع راحة لابنه الحبيب».

+ «السلام للكرسي الملوكي الذي للمحمول على الشاروبيم».

كما تشترك بداية قانون الإيمان الأفسسي الذي وضعه المجمع في الاهتمام بهذه الصفة في مطلع تمجيده للعذراء بقوله:

+ «نعظِّمك **يا أم النور الحقيقي** ونمجدكِ أيتها العذراء القديسة والدة الإله».

وتشترك ثيئوتوكية السبت في إبراز هذه الصفة وأسبابها:

+ «صرتِ سماءً ثانية على الأرض يا والدة الإله، لأنه أشرق لنا منكِ شمس البر».

وفي بداية افتتاح التسبيح بالثيئوتوكية في مساء يوم الأحد (عشية الاثنين)، اختارت الأبصلمودية أن تبرز هذه الصفة بنوع خصوصي وتعلِّق عليها أيضاً بالقطعة الحادية عشرة من ثيئوتوكية الأحد:

---

(٢٣) ذكصولوجية وهي من كلمتين δοξα (تمجيد)، η λογια (مجموعة) أي مجموعة تمجيدات.

+ «كل الأسماء العالية التي لغير المتجسدين، ألوف الملائكة ورؤساء الملائكة، لم يبلغوا عظمة طوباويتكِ أيتها المشتملة بمجد رب الصباؤوت. **أنتِ مضيئة أكثر من الشمس ولامعة أكثر من الشاروبيم**، والساروفيم ذوو الستة الأجنحة يرفرفون عليكِ بتهليل».

وفي القطعة الثانية عشرة من ثيئوتوكية الأحد تخرج التسبحة بالنتائج التي ترتبت على هذه الصفة، أي كون العذراء حَمَلَت شمس البر في بطنها:

+ «مجدكِ يا مريم أرفع من السماء، وأنت أكرم من الأرض وسكانها، لأنكِ أنت السكة الحقيقية المؤدية إلى السموات».

وفي القطعة العاشرة من نفس الثيئوتوكية تخرج بنتيجة حتمية لهذه الأوصاف السماوية التي للعذراء:

+ «**أنت مستحقة أكثر من جميع القديسين أن تطلبي عنَّا أيتها الممتلئة نعمة.**
لأنكِ مرتفعة جداً أكثر من رؤساء الآباء ومكرَّمة أفضل من الأنبياء. ولكِ سعيٌ بدالة أكثر من الشاروبيم والساروفيم.
فأنتِ بالحقيقة من أجل هذا صرتِ فخر جنسنا وشفيعة نفوسنا.
فاشفعي فينا أمام مخلصنا لكي يثبِّتنا في الإيمان المستقيم وينعم لنا بمغفرة خطايانا، حتى نفوز برحمة بواسطة شفاعتكِ».

وفي إبصالية الأحد، الرُبع الحادي والعشرين، يتضح كيف صارت العذراء نقطة وصل بين العظيم الأبدي النور غير المقترَب إليه، وبين الإنسان المخلوق، وذلك لمّا أرضعت ابن الله من ثدييها:

+ «الساكن في **النور الذي لا يُدنى منه** أظهر آياته، **وأرضعتِه** اللبن».

وفي ثيئوتوكية الجمعة تسود هذه الصفة السماوية التي للعذراء على كل فكر الثيئوتوكية وهي تبرزها بصورة قوية:

+ «**قد أشرقت لنا منكِ شمس البر** والشفاء في أجنحتها، **لأنه هو الخالق.**
مباركة أنت أفضل من السماء ومكرمة أفضل من الأرض، لأنكِ فُقْتِ كل فكر.
ليس مَنْ يُشبهكِ يا مريم العذراء. الملائكة تكرِّمكِ والساروفيم يمجدكِ
لأن **الذي على الشاروبيم أتى وتجسَّد منكِ**، حتى اتحدنا به بسبب صلاحه.
أنتِ المدينة النفسانية التي **سكن فيها العلي، الجالس على مركبة الشاروبيم**».

وتختص ثيئوتوكية الخميس بتوضيح مركز العذراء في السماء من واقع سفر الرؤيا، وتُبرز الثيئوتوكية الصفة السماوية الجديدة التي نالتها العذراء بميلادها البتولي لشمس البر:

+ «رأيتُ آية ظهرت في السماء، **إذ بامرأة متسربلة بالشمس** والقمر أيضاً تحت رجليها، واثني عشر كوكباً تكلل رأسها وهي حُبلى تتمخض صارخة لتلد.
هي مريم **السماء الجديدة التي على الأرض** التي أشرق منها شمس البر.
لأن **الشمس المتسربلة بها هي ربنا يسوع المسيح**، والقمر الذي تحت رجليها هو يوحنا المعمدان،
والاثنا عشر كوكباً المكللة رأسها هي الاثنا عشر رسولاً يحيطون بها ويكرمونها.
فلهذا نمجد العذراء نحن كافة الشعوب».

وثيئوتوكية الأربعاء تستهل أوصافها بهذه الصفة السماوية:

+ «كل الطغمات السماوية ينطقون بطوباويتكِ، لأنكِ **أنتِ هي السماء الثانية الكائنة على الأرض.**

السلام للعبدة والأم العذراء والسماء التي حملت جسدياً الذي على الشاروبيم.

مَنْ تخافه الملائكة حملته مريم في بطنها!

هي أرفع من الشاروبيم ومُكرَّمة أكثر من الساروفيم لأنها صارت هيكلاً للواحد من الثالوث».

وتشترك ثيئوتوكية الثلاثاء أيضاً في تمجيد هذه الصفة السماوية وشرحها:

+ «**أنت هي السلم التي رآها يعقوب ثابتة على الأرض ومرتفعة إلى السماء** والملائكة نازلون عليها،

الساكن في **النور غير المقترب إليه حل في بطنها** تسعة شهور».

وتشرح ثيئوتوكية الاثنين معنى إشراق شمس البر. وجعلت هذا الشرح بمثابة القرار المتكرر لمرد الشعب من أجل التعليم:

+ «**أشرق جسدياً** من العذراء بغير زرع بشر حتى خلَّصنا».

+ «الله هو نور وهو **ساكن في النور** وتُسبِّحه ملائكة النور!

والنور أشرق من مريم»!

+ [السلام لمريم المصباح غير المنطفىء قط] (القديس كيرلس الكبير).

+ [السلام لمريم المتوشحة بالنور غير المنطفىء] (القديس ثيئودوتس).

+ [نافذة السماء التي انسكب منها النور على العالم] (القديس فولجنتيوس).

+ [**السلم السمائي** الذي انحدر الله عليه حتى وصل إلى الأرض] (القديس فولجنتوس).

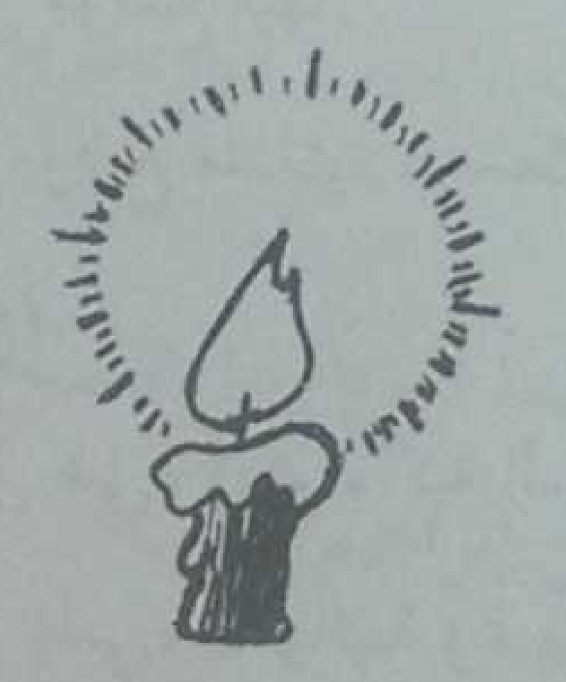
+ [هي السماء السرية الجديدة] (القديس أفرآم السرياني).

+ [هي السماء حاملة اللاهوت] (القديس أفرآم السرياني).

+ [مريم هي عمود السحاب الذي كان يسير أمام إسرائيل] (القديس أمبروسيوس).

+ [مُكرَّمة أكثر من الشاروبيم وممجَّدة أكثر من الساروفيم] (القديس يوحنا ذهبي الفم).

+ [صارت بطنكِ له عرشاً، وجسمكِ احتواه باتساعه الذي يفوق السماء] (قداس القديس باسيليوس عند الروم).



رابعاً: قديسة في كل شيء

إن الثيئوتوكيات السبع تحمل الأساس الذي تقوم عليه عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية من جهة مركز العذراء مريم في إيماننا.

ومن جميع المبادىء الواردة في الثيئوتوكيات يتبين بغاية الوضوح أن مريم العذراء ليست قطعاً موضوع عبادة في الكنيسة، وإنما هي موضوع تكريم حقيقي واعتراف بالجميل الذي أدته للبشرية عوض خطيئة حواء.

فالكنيسة الأرثوذكسية لا تعتقد أن مريم وُلدت بطبيعة مقدسة – لتقبل الحلول الإلهي – فتُصبح بالتالي مستحقة للعبادة باستحقاق طبيعتها الفريدة. هذا خطأ لأنه يُخرجها خارج دائرة البشرية فتنقطع الصلة بين الإنسان والمسيح، بل ويجعل إمكانية حلول المسيح أيضاً فينا أمراً مستحيلاً، إذ يلزم أن نصير بطبيعة مقدسة، أي بدون خطية آدم، حتى يتسنَّى للمسيح أن يحلَّ فينا!!

ولكن الكنيسة تؤمن أن الروح القدس لمَّا حلَّ عليها، قدَّسها إعداداً للتجسُّد وذلك بأن ملأ الروح القدس كل موضع فيها:

+ «والروح القدس ملأ كل موضع منكِ: نفسكِ وجسدكِ يا مريم أم الله».
(لبش السبت الربع الرابع).

وبذلك صارت قديسة في كل شيء (ثيئوتوكية السبت)، لا بمعنى **كلية القداسة** لأن الصفات الكلية هي جوهر إلهي، لانهائية وغير محدودة، ولا تُطلَق إلاَّ على

الثالوث الأقدس. لذلك فكلمة $\pi\alpha\nu\alpha\gamma\iota\alpha$ (باناجيا) أي كلية القداسة، إذا أُخذت بتدقيق حسب المنطق اللاهوتي، فإنها لا تنطبق على القديسة مريم لأن ذلك يستلزم أن تكون مقدَّسة منذ الأزل وإلى الأبد، ولكن هي مولودة (حسب التقليد) من أب هو يواقيم ومن أم هي حنة – أي من دم ولحم ومن مشيئة رجل – وبالتالي وُلدت منذ البدء حاملة لطبيعة آدم.

وهذا نلمحه بغاية الوضوح في قول ثيئوتوكية يوم الخميس القطعة الثالثة الربع الخامس:

+ «يا لعمق غنى وحكمة الله لأن البطن الواقع تحت الحكم وولَدَ الأولاد بوجع القلب (أي طبيعة البشرية الساقطة التي أخذتها مريم من أبويها)، صار ينبوعاً لعدم الموت (بعد التقديس) وولدت لنا عمانوئيل بغير زرع بشر فنقض فساد جنسنا».

ثم تعود نفس الثيئوتوكية فتوضِّح حقيقة الجسد الإنساني الذي أعطته العذراء مريم للمسيح بصفته مساوياً لطبيعتنا تماماً – ما خلا الخطية طبعاً – وذلك في القطعة السادسة الربع الثاني:

+ «كل عجينة البشرية أعطتها بالكمال لله الخالق كلمة الآب ...
هذا الذي تجسَّد منها بغير تغيير، وَلَدته كإنسان، ودُعي اسمه عمانوئيل».

وفي نفس هذا المعنى يقول القديس مار أفرام السرياني في تسبحته الأولى عن الميلاد:

[**مريم قد خبأت فينا اليوم** (عبر المسيح الذي ولدته من جسدها) **خميرة انحدرت لنا من إبراهيم**].

ثم إن قداستها ابتدأت بعد الاختيار لا قبله: «الآب اختارك والروح القدس ظللك والابن تنازل وتجسد منك» (صلاة الأجبية – باكر) غير أنها تقدَّست في كل شيء بعمل الروح القدس وظلت كذلك.

أمَّا جسد المسيح الذي أخذه منها، فهو لم يتقدس بواسطة العذراء، وإنما بعمل الروح القدس وباتحاد لاهوته. لذلك فالكنيسة تقطع بعدم عبادة مريم قطعاً فاصلاً. وذلك واضح من أقوال الآباء ونكتفي الآن بقول فاصل للقديس أمبروسيوس (٣٣٩–٣٩٧م):

[**وبدون شك يُعبد الروح القدس، ولكن لا ينحرف أحد بهذه العبادة نحو العذراء مريم، لأن مريم كانت هيكلاً للإله وليست إله الهيكل، لذلك فإنه** (الرب يسوع) **وحده هو الذي يُعبَد وهو في هيكله**].

(القديس أمبروسيوس – عن الروح القدس – الكتاب الثالث).

كذلك لا تؤمن الكنيسة إطلاقاً أن مريم العذراء كانت شريكة ابنها في الفداء وبالتالي يتحتم أن تكون شريكة معه في سجودنا وصلاتنا وعبادتنا. هذا شطط مريع في مفهوم الفداء والعبادة. أمَّا كل ما تُقدمه الكنيسة الأرثوذكسية للعذراء مريم في تقليدها الأصيل فهو تكريمها وتعظيمها وتطويبها وتبريكها ملتزمة نفس الجُمل التي نطق بها الملاك جبرائيل ونسيبتها أليصابات، وكما نطقت العذراء نفسها وبفمها: «تعظِّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي لأنه نظر إلى اتضاع أمته. فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوبني. لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدوس ...» (لو ١:٤٦–٤٩). لذلك «نحن نطوِّب عظمتها» (ثيئوتوكية السبت).

أمَّا ما نالته البشرية من خلاص وفداء ونعمة وصلاح وتقديس وحياة أبدية فهو عن طريق شخص المسيح الفادي فقط برضاء الآب وعمل الروح القدس. أمَّا نصيب مريم العذراء فتقول ثيئوتوكية السبت:

+ «مِنْ قِبَلِ ثمرة بطنكِ قد أدرك جنسنا الخلاص».

وفي يوم الأحد تقول الثيئوتوكية:

+ «مسبِّحين خالقهم وهو في بطنكِ».

ولكن بسبب المعجزات التي صنعها الله مع مريم العذراء، وبسبب المراحم الإلهية الجديدة التي فاضت على البشرية والتي ظهرت أثناء التجسُّد أي في الحمل والولادة، يشترك الآباء في اعتبار أن حياة العذراء قد صارت سبباً قوياً لتزكية العبادة والسجود لله:

+ «أنتِ هي الصنَّارة العقلية التي تصطاد المسيحيين وتعلِّمهم السجود للثالوث المحيي» (لبش يوم الجمعة – الربع الثالث).



خامساً: أم جميع الأحياء

«السلام للقديسة مريم أم جميع الأحياء.
نطلب إليكِ أن تشفعي فينا» (ثيئوتوكية الثلاثاء – القطعة الثالثة، الربع الخامس).

كما أن حواء كانت أم كل حي لأن منها وُلد كل بني آدم إلاّ أنها بمخالفتها وصية الله فقدت هذا اللقب وصارت أُم كل ميت، هكذا فإن العذراء مريم لمّا ولدت المسيح الإله المتجسِّد آدم الثاني رئيس الحياة ورأس الخليقة الجديدة صارت به أُماً لكل حي (في الحياة الأبدية)، أي أُماً لكل الأعضاء المتحدة بجسد المسيح، لأن جسد المسيح جسد محيي، أي يعطي الحياة، حسب قول القديس كيرلس الإسكندري.

ولكن للقديس أغسطينوس تحذير جدير بالتأمل والانتباه الشديد، لأنه يمنع أي التباس في رفع العذراء مريم إلى درجة الألوهة بقوله:

[أما عن الرأس أي مخلصنا نفسه فمريم العذراء لا تُعتبر له أُمّاً روحية أو حسب الروح، لأن حسب الروح هي مولودة منه](٢٤).

أي أن العذراء هي روحياً عضو في الجسد السري وليست منفصلة عنه أو محتوية إياه.

(24) *De Sanct Virg.* P.L. 40, 399.

وللآباء الأُول أقوال واضحة في العذراء مريم كأُم الحياة الجديدة وأُم الأحياء وأُم الحي، وهي مطابقة للمعاني والاصطلاحات التي تستخدمها الثيئوتوكيات والذكصولوجيات التي للعذراء مريم. وأول مَنْ نادى بالمقابلة بين حواء ومريم هو الشهيد يوستين (١٠٠–١٦٥م) متمثلاً ببولس الرسول لمّا قابل بين آدم والمسيح وسمّاه آدم الثاني. يقول يوستين الشهيد في حواره المائة:

[المسيح صار إنساناً بواسطة العذراء حتى يمكنه أن يمحو المخالفة التي كانت بإيحاء الحية، وذلك بنفس الطريقة التي نبعت منها هذه المخالفة. فحواء التي كانت أولاً عذارء وغير دنسة لمّا حملت كلمة الحية (الشيطان) في داخلها ولدت المخالفة والموت؛ أمّا مريم العذراء إذ تقبّلت بالإيمان والفرح ما أعلنه الملاك جبرائيل لها في البشارة بأن الروح القدس يحل عليها وقوة العلي تظللها لذلك فالقدوس المولود منها يُدعى ابن الله وأجابت: «ليكن لي كقولك» – ولدت هذا الذي شهدت له أسفار كثيرة بكل تحقيق الذي بواسطته أهلك الله الحية وكل ما شابهها من ملائكة (ساقطين) وبشر](٢٥).

وجاء بعده القديس إيرينيئوس (١٢٠–٢٠٠م) «أبو التقليد الكنسي» وأفاض في هذا المعنى:

[وعلى هذا القياس وُجِدت مريم العذراء مطيعة إذ قالت: «هوذا أنا أمة الرب ليكن لي كقولك»، أما حواء فكانت غير مطيعة عندما كانت هي أيضاً عذراء.

(25) Just. *Apolog. Dial.* 100.

وبالرغم من أنه كان لها زوج وهو آدم وكانت أيضاً عذراء، ولكن عندما خالفت صارت «سبب» الموت لنفسها ولكل الجنس البشري.

هكذا مريم وهي لها رجل مخطوبة له وكانت عذراء، فعندما قدَّمت الطاعة، صارت «سبب» الخلاص لنفسها ولكل الجنس البشري(٢٦).

وهكذا فإن العقدة التي سبَّبها عدم طاعة حواء انحلَّت بطاعة مريم، والذي ربطته العذراء حواء ربطاً شديداً بعدم إيمانها هذا فكَّته العذراء مريم بالإيمان](٢٧).

وهنا يحاول القديس إيرينيئوس أن يوضِّح أن بامرأة تورطت البشرية في الموت بعدم طاعتها، وهكذا بامرأة أيضاً صار الشفاء للبشرية بطاعتها، وهي مريم، التي أعطت من جسدها جسداً لآدم الجديد أي المسيح الذي صار حياة أبدية لكل مَنْ يأكله. وبذلك صارت مريم حواء الجديدة الحقيقية أُمًّا للحياة بدل الموت. وهنا يلتقط القديس إيرينيئوس صفة جديدة لمريم العذراء إذ يعتبرها محامية أو شفيعة حواء: "Advocata Eava":

[فإذا كانت حواء الأُولى خالفت الله، إلاَّ أن الأخرى (مريم) اقتنعت بأن تكون مُطيعة لله، حتى تصير العذراء مريم محامية أو شفيعة حواء، وهكذا كما أن الجنس البشري وقع في العبودية للموت بعذراء، كذلك بعذراء

(٢٦) وهنا كلمة (سبب) أتت بمفهوم علة أو وسيلة لمجيء الخلاص. فالمسيح وحده هو المخلِّص وليس له شريك قط في فعل الخلاص (انظر ثيئوتوكية السبت).

(27) *Adv. Haer.* III, 23,34; III, 22,4.

أُنقذ. أي أن المخالفة العذراوية عادلتها في الناحية الأخرى طاعة عذراوية](٢٨).

ويتكلَّم في نفس المعنى القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات فيقول:

[إن الموت جاء بواسطة إنسان؛ والفداء تمَّ بآخر. الأول سقط بالخطية؛ والثاني رفعه مرة أخرى. والمرأة وجدت في امرأة محامياً عنها Advocata Eava](٢٩).

وإيرينيئوس يؤكد أن مريم هي أُم جديدة للبشرية فهو يلقِّبها: بـ «الرحم البتولي الذي خرجت منه الإنسانية الجديدة»، وينادي بالأمومة العامة التي لمريم العذراء ويتكلم عن ميلاد المسيح هكذا:

[القدوس الذي خرج بطهارة من الرحم الطاهر الذي أولد الإنسان لله من جديد](٣٠).

ومن بعد إيرينيئوس يأتي أوريجانوس العلاَّمة (في شرحه لإنجيل يوحنا ٦:١) ويؤكد ضرورة قبول كل إنسان للعذراء مريم كأم حتى يستطيع من خلال هذه العلاقة أن يكشف سر الإنجيل والحياة الأبدية:

[لا أحد يستطيع أن يفهم معنى الإنجيل (إنجيل يوحنا) إن لم يتكىء أولاً في حضن يسوع (أي تكون له علاقة محبة ودالة شخصية مع الرب) **ثم يتسلَّم**

(28) *Adv. Haer.* II, 33, 4.

(29) Cf. vol. I p. 298.

(30) *Adv. Haer.* II, 33, 4.

مريم من المسيح لتكون أُمًّا له هو أيضاً](٣١).

كذلك نقرأ للعلاّمة ترتليانوس (١٦٠-٢٢٠م) نفس الأقوال في كتابه:

De Carne Christi, 17.(٣٢)

وهذا التراث التقليدي تحمله الكنيسة إلينا في لُبْش الجمعة وثيئوتوكية الخميس:

«حُكم على حواء بالولادة بوجع القلب؛

أمَّا أنتِ فسمعتِ افرحي يا ممتلئة نعمة»

(لُبْش الجمعة).

«فخر جميع العذارى هي مريم والدة الإله، بسببها نُقِضَت اللعنة الأُولى التي جاءت على جنسنا من المخالفة التي وقعت فيها المرأة لمَّا أكلت من ثمرة الشجرة،

بسبب حواء أُغلق باب الفردوس؛ وبسبب مريم العذراء فُتح لنا مرة أخرى واستحققنا أن نأكل من شجرة الحياة أي من جسد ابن الله ودمه»

(ثيئوتوكية الخميس).

وبذلك نرى أن الثيئوتوكيات تحمل لنا هذا المقام الشخصي الذي للعذراء مريم، ليس فقط كمفهوم لاهوتي، وإنما أيضاً كعلاقة حية تربطنا بالتي ولدت لنا المسيح. والكنيسة تمارس هذا الإيمان وتعيشه كل يوم بالتسبيح حينما تخاطب العذراء:

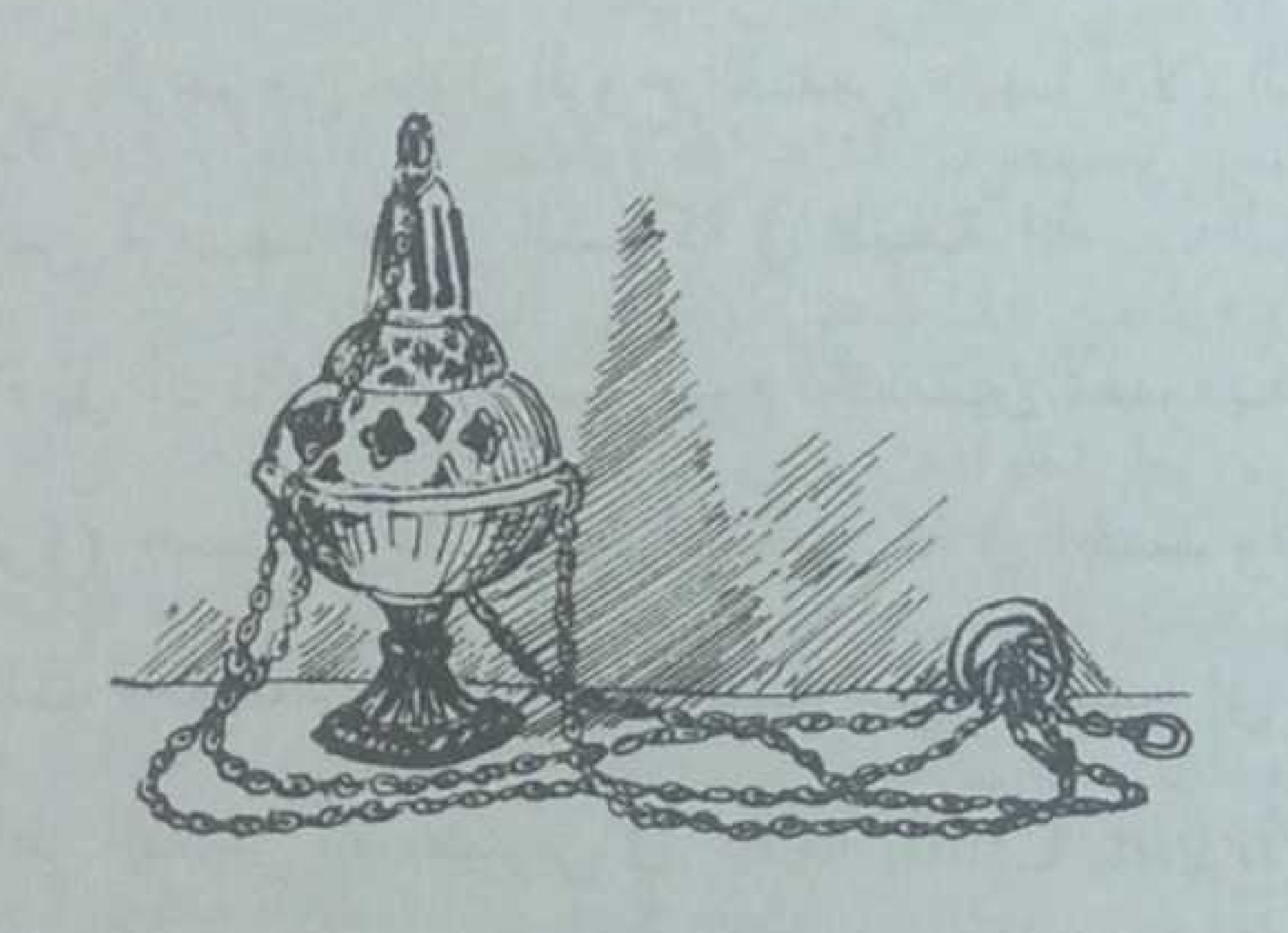
---

(٣١) إن موضوع أُمومة العذراء لنا نحن أيضاً يفتح المجال لشفاعتها عنّا، إذ نعلم بيقين أن لها دالة عند ربنا يسوع المسيح، فإمكانية حصولنا على أمومتها مثل يوحنا هو انفتاح باب شفاعتها لنا.

(32) PL 2, 788.

«السلام للقديسة أُم جميع الأحياء»(٣٣) (ثيئوتوكية الثلاثاء).

ولكن من المدهش حقاً أننا نجد الكنيسة تستخدم في الواقع العملي اصطلاحاً آخر لمخاطبة العذراء وهو «السيدة سيدتنا كلنا»: ⲧⲉⲛϭⲟⲓⲥ ⲛ̀ⲛⲏⲃ ⲧⲏⲣⲉⲛ بدل «أُمنا» وذلك في جميع المواقف التي تضطر فيها إلى مخاطبتها شخصياً. ولعل هذا البديل يحمل شعوراً مضاعفاً بالتبجيل للعذراء مع الاحتفاظ بتواضعنا!



---

(٣٣) هذا بخصوص مفهوم الأمومة العام الذي يربطنا بالعذراء والدة الإله. أمَّا ميلادنا الجديد فمعروف في التقليد أنه من رحم الكنيسة الإلهي أي جرن المعمودية «من الماء والروح» بسر التجديد. وهنا ينفتح أمامنا مجال جديد للتأمل في الصلة السرية بين مفهوم الكنيسة «كعذراء مخطوبة لرجل واحد = Âlma كقول بولس الرسول، وبين العذراء مريم المخطوبة أيضاً = Âlma. فكما أن مريم حبلت بالمسيح بسر بتولي وولدته، هكذا الكنيسة أيضاً تتمخض بنا بسر الروح القدس وتلدنا بتوليين من رحم بتولي، أي من معمودية طاهرة، حيث الروح القدس يحل عليها وقوة العلي تظللها وكل المولودين منها يُدعَون قديسين وأبناء الله!

سادساً: شفاعة العذراء مريم

معروف قطعاً في تقليدنا اللاهوتي أن العلاقة الطبيعية التي كانت قائمة بين العذراء وابنها الإله المتجسِّد لم تُضْفِ على شخصية العذراء حالة اشتراك في طبيعة المسيح الإلهية حتى بالرغم من حلول الروح القدس عليها أولاً، الذي أعدَّها فقط لحمل الإله ولكن لم يهبها امتياز الشركة في طبيعة الله ... التي ظلت تنقصها وتنتظرها بالصلاة إلى أن نالتها مع الرسل يوم الخمسين بمعمودية «الروح القدس ونار» (أع ٢:٣و٤) حسب موعد الآب، ثم بالشركة في الجسد والدم (أع ٢:٤٢)، وحينئذ فقط كمُلت قامة العذراء مريم إلى قامة ملء المسيح إلى إنسان كامل في المسيح يسوع (انظر القديس أُغسطينوس في كلامه *De Sancta Virgin*, Ch.6; PL 48,399. وأيضاً انظر أقوال القديس مار أفرآم السرياني صفحة ٥٩).

فالعذراء عضو في كنيسة المسيح، أي في الجسد السري، بفعل يوم الخمسين وبالصلاة والشركة **«كعبدة»**: «هوذا أنا أمة الرب» (لو ١:٣٨)، وفي نفس الوقت **«كأم للكنيسة»** كلها بقبولها أن تكون والدة الجسد الإلهي: «القدوس المولود منكِ يُدعى ابن الله.» (لو ١:٣٥)

هذا في الواقع هو الذي تمَّ فعلاً للعذراء مريم بعد ما ولدت المسيح إذ تتلمذت له وخضعت لحتمية الفداء والتبرير والخلاص الذي لا يمكن أن يتم إلاَّ بالمسيح، والذي ظلت البشرية كلها ومريم العذراء بدون استثناء تحتاجه وتنتظره إلى أن أكمله ابن

الله على الصليب وأعلنه بقيامته ومنحه بالروح القدس يوم الخمسين، وهذا أيضاً هو واقع الكتاب المقدس.

والآن إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس، نجد أن سلوك السيد المسيح نحو أمه وتصريحاته بخصوص علاقة الأمومة التي تربطه بها كانت كلها تنطق بصورة خفية أن المسيح يعارض فكرة تمجيد أمه لمجرد أنها أمه، أي دون أن يكون لها عمل إيماني شخصي تجاه كلمة الله يؤهلها للمجد: «وفيما هو يتكلم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجمع وقالت له طوبى للبطن الذي حملك والثديين اللذين رضعتهما، أما هو فقال بل طوبى للذين **يسمعون كلام الله ويحفظونه.**» (لو ١١:٢٧و٢٨)

ويظهر لأول وهلة من هذا النص الإنجيلي أن السيد لا يريد أن يكرم أمه، ولكن بشيء من التعمُّق وربط الحوادث نرى أن الواقع خلاف ذلك، وأن المسيح يقدم أمه كنموذج كامل يستحق التطويب المزدوج، أولاً لأنها حملت الإله في بطنها وثانياً لأنها سمعت كلام الله وحفظته، وعلينا فقط أن نتذكر ما عملته مريم وما سجله الإنجيل عنها: «وأمَّا مريم فكانت **تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها.**» (لو ٢:١٩)

والآن إذا كان أيٌّ من يسمع كلام الله ويحفظه يستحق التطويب، كما يقول الرب، فكم يكون التطويب وماذا تكون درجته إذا كانت **هي أمه**؟ إذاً، أليس هذا تأكيداً قاطعاً أن التقليد الكنسي على حق واضح وثابت في تمجيده للعذراء مريم أكثر من الجميع، وها هو الكتاب نفسه يشهد لها؟ فقد جمعت مريم بين «الطوبى

للبطن والطوبى للثديين والطوبى للأذن والقلب»(٣٤).

وهكذا نثق أن التقليد الكنسي في تمجيده لوالدة الإله لا يقوم على أسس وهمية أو عفوية ولكنه ثابت كثبوت الإنجيل، بل إن التقليد في هذا يظهر أيضاً أنه يشرح الإنجيل واللاهوت عملياً!

ولكن مرة أخرى وفي إنجيل لوقا نقف أمام السيد المسيح وهو رافض في إصرار أن يقابل أمه كأنه منشغل برسالته عنها:

+ «وجاء إليه أمه وإخوته و لم يقدروا أن يصلوا إليه بسبب الجمع فأخبروه قائلين أُمك وإخوتك واقفون خارجاً يريدون أن يروك(٣٥) فأجاب وقال لهم أُمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها.» (لو٨:١٩-٢١)

وهذا الموقف عينه يتكرر في كلٍّ من إنجيل متى ومرقس (مت١٢:٤٦)؛ (مر٣:٣١).

ويظهر هنا لأول وهلة كأنما المسيح يصرُّ على عدم تكريمها. ولكننا نندهش حينما نتعمَّق المعنى ونفحص النص الإنجيلي إذ نجد أن الثلاثة الأناجيل تذكر هذه الحادثة متصلة مباشرة بمَثَل الزارع!! الذي يدور حول «الذي في الأرض الجيدة هو الذين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب جيد صالح ويثمرون بالصبر، وليس أحد يوقد سراجاً ويغطيه بإناء أو يضعه تحت سرير بل يضعه على منارة لينظر الداخلون

---

(٣٤) وهنا نستطيع أن نجد العلة الحتمية لصعود جسد العذراء بعد نياحتها، فهذه الطهارة الكاملة لا يمكن أن يفسدها تراب الأرض.

(٣٥) انظر كتاب «الدسقولية» د. وليم سليمان قلادة، صفحة ١٥٥.

النور» (لو ٨:١٥و١٦). ومن ربط حادثة رفض مقابلة السيد المسيح لأُمه بالمثل التعليمي الذي كان المسيح منشغلاً به أثناء مجيء العذراء في هذه اللحظة، يظهر بوضوح أن المسيح يريد أن يؤسِّس عقيدة عامة تتلخص في أن علاقته بالناس تقوم أولاً على أساس رسالته الإلهية التي جاء ليتممها وليس على أساس علاقته الشخصية وقرابته للناس!

والآن نبحث هل كانت أمه أرضاً جيدة للكلمة تسمعها وتحفظها في قلب جيد صالح؟ وهل عملت بها فعلاً كطلبه؟ وهل تقبَّلت رسالته الإلهية التي جاء ليتممها؟

إذا عُدنا للإنجيل نجد أنها كانت أول من سمع وعمل بالكلمة فعلاً، وأول مَنْ أكمل رسالته بدقة وأمانة وشجاعة وطاعة ومبادرة واهتمام إلى آخر لحظة. وتبدأ طاعتها لرسالته مبكراً جداً وهو ابن اثنتى عشرة سنة لَمَّا تقبَّلت منه راضية قوله لها: «لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي؟» (لو ٢:٤٩). أمَّا هي فبالرغم من أن الكتاب يقول «فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما» (لو ٢:٥٠)، إلاَّ أن الكتاب يشهد لها أنها «**كانت تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها**» (لو ٢:٥١)، وبذلك كانت مريم أمه أول إنسان في الوجود حفظ كلامه وأموره في قلب جيد وصالح!!

ثم على الصليب لم تنكره بل وقفت بجانبه في شجاعة وثبات، إيماناً منها برسالته، وأثبتت دون جميع مَنْ سمع تعاليمه حتى تلاميذه (ولعل يوحنا لم يظهر عند الصليب إلاَّ بسببها) أنها هي وحدها التي حفظت كلامه في قلب جيد وصالح حقاً.

ثم أخيراً نجدها مع التلاميذ في العُلِّية بعد الصعود مباشرة، مواظِبةً على الصلاة والطلبة بنفس واحدة مع بقية التلاميذ، منتظرة تحقيق وعد ابنها بمجيء الروح القدس، وهكذا أثبتت مريم العذراء أنها حفظت الكلمة وأطاعت الوصية وأكملت

مشيئة ابنها بدقة ومواظبة حتى النهاية، وأخيراً نالت فعلاً عطية الروح القدس الذي حلَّ عليها مع الرسل والتلاميذ يوم الخمسين.

والآن إن كان أيُّ مَنْ كان يسمع كلمة الله ويعمل بها يستحق أن يُدعى أُماً للمسيح أو أخاً له، فماذا يكون قدر استحقاق أُمه التي ولدته إن هي سمعت كلامه وعملت به وأطاعت رسالته بهذه الدقة والمواظبة والأمانة الفريدة؟

وكأنما العذراء مريم في هذه الأوضاع جميعها قد أخلت نفسها من كل فضل الأمومة وكرامتها التي نالتها بميلاد ابن الله من أحشائها، وتخلَّت بإرادتها عن كل تكريم الملاك لها وتطويب أليصابات، وابتدأت تجاهد لتحصل بإيمانها على حقها في رسالة ابنها، فكانت تسمع له وتحفظ أقواله كتلميذة نشيطة وكإبنة مطيعة كانت تنفِّذ وصيته حتى الصليب والقبر والقيامة والصعود. ثم واظبت مع المصلِّين لتنال قوة من الأعالي وشركة مع المؤمنين في الروح القدس وفي الجسد المقدَّس، وأكملت حقاً ما تعهدت به في بدء حياتها: «هوذا أنا أَمَةُ الرب ليكن لي **كقولك**» (لو ١:٣٨).

وبذلك استحقت مريم العذراء بإيمانها واجتهادها وقلبها الجيد الصالح أن تصير أُماً للمسيح بالإمتياز الإيماني فوق امتياز الاختيار الإلهي لها! وذلك بسماعها كلمة الله وعملها بها وتكميلها مشيئة الله كنص الآية: «مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي **وأمي**.» (مت ١٢:٥٠)

وفي هذا المعنى يقول القديس أُغسطينوس:

[ومريم صارت مطوَّبة بسبب تقبُّلها الإيمان بالمسيح أكثر من تقبُّلها الحمل به ... وتقرُّبها إلى المسيح بالجسد كأُم كان بلا ربح لو لم تحمل المسيح في

قلبها](٣٦).

سلام للعذراء التي صارت أُمومتها للإله أُمومتين: أُم بالنعمة، وأُم بالاجتهاد.

وبذلك أثبتت مريم العذراء بسلوكها الإيماني حتى النهاية أنها فعلاً كانت مستحقة ذلك الاختيار الإلهي الذي وقع عليها أن تكون أُماً للمسيح الكلمة، وكانت فعلاً أهلاً لحلول الروح القدس عليها في البداية الذي كان لتقديسها وإعدادها للتجسُّد الإلهي الذي تمَّ في أحشائها!

هنا ينجلي السر في حادثة إصرار المسيح على عدم تكريم أُمه لمجرد علاقتها به «كوالدة للجسد الإلهي» أي كأُم فقط، إذ يلزمها لكي تُكرَّم إلى الأبد أن تصير بالإيمان شريكة أيضاً في نفس هذا الجسد الإلهي، ومتحدة به؛ لأنه خارج جسد المسيح لا توجد كرامة لإنسان في الوجود. وواضح أن هذا لم يكمُل للعذراء مريم إلاَّ في يوم الخمسين وما بعده، حيث ترك الرب على عاتقنا حينئذ تقرير أُمومتها له على هذا الأساس، وتكريمها بما يليق كوالدة للجسد الإلهي ومتحدة أيضاً به!!!

إذاً، فتمجيد الكنيسة للعذراء مريم بهذا الوصف الفائق هو في الواقع حسب مشيئة المسيح، وهو لا يتضمن تقريراً للأمومة إلاَّ على أساس تكريم الوصية وتكميلها بالاتحاد بالمسيح.

وأُمومة العذراء مريم على هذا الأساس أُمومتان؛ أُمومة صارت من الله بالاختيار والتقديس، وأُمومة حازتها هي بالاجتهاد والإيمان وتتميم الوصية: «مَنْ يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو ... **أمي**» (مت ١٢:٥٠)، وكل منهما تجعل الأخرى فائقة فوق مستويات البشر.

---

(36) NPNF. III *On Virgin* p. 418, 3.

واضح إذاً أن لدى مريم العذراء شيئاً يفوق إمكانية كل إنسان بل وكل ملاك. من هنا ننظر إليها كشفيعة.

حدود الشفاعة لدى مريم العذراء:

قصة عرس قانا الجليل تُلقي ضوءاً واضحاً على علاقة العذراء مريم بالمسيح الرب من جهة إمكانية تشفعها عن الآخرين ومدى استجابة الرب لشفاعتها، بل وتُظهر أيضاً بحال خفي مقدار دالتها وجرأتها مع ابنها ومدى تقبُّل المسيح لهذه الدالة.

ولكن الذي يهمنا جداً في مضمون هذه القصة هو معنى الشفاعة التي يمكن أن تمارسها مريم العذراء وحدودها. والكنيسة تؤمن أن عرس قانا لا يزال قائماً، والضيف الإلهي كما كان بالأمس هو هو قائم اليوم وإلى الأبد، والبشرية هي بعينها مِتلافة وعاجزة وقد أفرغت خمرها وأتت في أشد الحاجة إلى العون الروحي والحكمة التي تسلك بها في ظلمة هذا العالم، وأجران التطهير فارغة ومنسية (إشارة إلى إخفاق الإنسان بالنسبة للناموس)، والقلوب جافة ومتلهفة للإنعاش والعيون كلها تنظر إلى الأم في توسُّل لكي تنقل كلمة البشرية إلى آذان الضيف الإلهي لكي يبدأ عمله العظيم، لا كأنه غافل عن المحبة ولا كأنه لا يسمع ولا يرى ولا كأنه لا يريد أن يشترك في عوز المتكئين في أركان العالم حوله، وإلاَّ فلماذا جاء؟ ولكنه كان يريد أن يسمع السؤال شجاعاً واضحاً. هو مشتاق أن تصل إلى أذنه كلمة واثقة تعبِّر عن حاجة الناس، ولكن من شفاه مؤمنة بقدرته السرمدية ولاهوته؛ وهو يريد قلباً يطلب منه بدالة، دالة البنوة الكاملة أو دالة الأمومة الواثقة.

حينما تقدمت العذراء إليه بالسؤال: «ليس لهم خمر؟» (لو ٣:٢) كانت شفيعة العرس كله وكل المتكئين والعالم، ولا تزال إلى الأبد عوناً جديداً دائماً وشفيعاً لمن ليس لهم عون.

إنها لا توقظ المسيح بسؤالها كمن هو نائم، ولا تلفت نظره إلى شيء كأنه عنه لاهٍ، ولا تُلحُّ أيضاً بسؤالها كمن يتضرع نحو إله قاسٍ، ولكنها بدالة شديدة تضم توسلها إلى رحمته وترفع سؤالها بالثقة حتى يبلغ إلى استجابته الوديعة المستعدة، لأن توسُّل البشرية لا يمكن أن يبلغ إلى استجابة المسيح الحاضرة إلاَّ بدفع الإيمان، والإيمان جوهره الثقة بما يُرجى والإيقان بالأمور التي تُطلب.

لقد كان المسيح ينظر حاجة المتكئين والبشرية كلها، ويرى أن الخمر فرغت، والعالم فقد الرجاء، إنه يحس بعَوَز المدعوين، وكل الشعب، وخجل الداعين، وإفلاس الرؤساء. وكان يريد أن يعمل شيئاً، ولكن المسيح لا يعمل إلاَّ في مجال الإيمان، إيمان يتزكى حتى يبلغ إلى حالة اغتصاب علنية. وإيمان مريم نفسه دخل علناً في حالة اختبار شديد: «قال لها يسوع مالى ولك يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد» (يو ٤:٢)، صدٌّ شديد يذكِّرنا بصدِّ المسيح لتوسُّل المرأة الكنعانية عند اختبار إيمانها: «ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب» (مت ٢٦:١٥). أمَّا رد الكنعانية فمعروف، وهو تكرار التوسُّل مع الاتضاع؛ وأما رد مريم العذراء هنا فهو شيء يفوق الوصف، شيء يشرح الشفاعة شرحاً، ويجسِّم الدالة تجسيماً، ويقدِّم الثقة والإيمان تقديماً نموذجياً رائعاً:

+ «قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه»!! (يو ٥:٢)

إذاً، فهي لا تزال عند ثقتها، لقد أبلغت توسُّلها للمسيح ولا تنتظر منه إلاَّ التحقيق، هي لا تريد أن تصنع شيئاً بنفسها أكثر مما توسلت به مرة واحدة، هي لا تُلحُّ ولا تكرر السؤال.

مريم تلتفت إلى المحتاجين وتقول: «**مهما قال لكم فافعلوه!!!**». وهذه هي الوصية الوحيدة التي قدمتها مريم العذراء للناس ولا تزال تقدمها للعالم أجمع. وفيها

تظهر مريم كما عرفناها خادمة لكلمة المسيح: «وكانت تحفظ هذا الكلام متفكرة به في قلبها».

إذاً، فعمل مريم في الشفاعة ينحصر ويتحدَّد بصورة واضحة في اتجاهين:

الأول: مجرد تقديم حاجتنا أمام المسيح بثقة ودالة وإيمان الأمومة. وهذه الشروط وهذه الدالة في الواقع تعوزنا أحياناً كثيرة.

وهذا الاتجاه واضح في كل توسُّل وكل مرد في الكنيسة من أول الخدمة إلى آخرها: «اشفعي فينا أمام المسيح الذي ولَدْتِه»، وكأنما نحن نُعيد إليها وإلى المسيح وإلى أنفسنا موقف عرس قانا الجليل تماماً: «بشفاعة والدة الإله ... يا رب أنعم لنا بمغفرة خطايانا».

أمَّا الاتجاه الثاني فهو قدرتها على توجيه قلبنا سراً إلى وصايا المسيح، لتتميمها بكل دقة كما أوصت أصحاب العرس «مهما قال لكم فافعلوه»، وذلك عندما نُظهر لها احتياجنا ويبدو أمامها لائقاً ومستحقاً الشفاعة فعلاً كما حدث في معجزة العُرس.

وهنا تتضمن الشفاعة معونة وتنبيهاً روحياً تمارسه العذراء معنا لاكتشاف مشيئة المسيح نحونا.

ولكي نضرب مثلاً على ماهية الشفاعة عند العذراء مريم في أعلى وأجمل صورها، نقدِّم هذه الواقعة المسجَّلة بيد غريغوريوس النيسي:

يروي لنا القديس غريغوريوس النيسي الذي من كبادوكية هذه القصة التي استلمها عن سميِّه القديس غريغوريوس صانع العجائب الذي كان أسقفاً على قيصرية الجديدة بآسيا الصغرى، التي فيها يروي كيف استلم قانون الإيمان في رؤيا علنية ظهرت له فيها السيدة العذراء مع يوحنا الرسول، ولقَّناه فيها كلمات الإيمان.

قال النيسي:

[قبل أن يُمنح صانع العجائب رتبة الكهنوت، بينما كان ذات يوم منهمكاً جداً في تفكير عميق، حول عبارة لاهوتية كان قد طلع بها الهراطقة حينذاك على الكنيسة لإفساد الإيمان ... وقد ظل غريغوريوس ساهراً الليل بطوله وهو يتفحص كلمات هذه العبارة، إذ بشخص يظهر أمامه فجأة وكان شيخاً مهيباً تبدو قداسته واضحة في مظهره والنعمة تفيض من محياه، وحينما انتبه غريغوريوس صانع العجائب وجد مقابل هذا الشيخ الجليل امرأة إنما تفوق البشر في مظهرها، ولكنه عجز عن أن يثبِّت عينيه عليها ليستوضح رؤيتها، وإذ به يسمعهما يتحدثان معاً عن المعضلة اللاهوتية التي كانت تشغل باله. ومن الحديث الذي دار بينهما أدرك غريغوريوس كل ما كان يود أن يعرفه بخصوص الإيمان والمشكلة اللاهوتية. وأكثر من ذلك فقد سمعهما يخاطبان بعضهما بألقابهما، إذ سمع المرأة تقول: «يا يوحنا اشرح لهذا الشاب سر الله»، وسمع يوحنا يخاطب المرأة: «يا أُم الرب». وقد بدأ يوحنا يشرح للقديس غريغوريوس الكلام بكل وضوح ويلقِّنه له تلقيناً كاملاً ثم اختفى][٣٧].

ويقول غريغوريوس النيسي إن قانون الإيمان الذي استلمه صانع العجائب من يوحنا يبدأ هكذا: «يوجد إله واحد أب الكلمة الحي». وقد قُدِّم لمجمع نيقية فدخل ضمن قانون الإيمان العام.

+ [**العذراء مريم صنعت لكل المؤمنين أردية خالدة لا تفسد من صوف الحمل**

---

(37) Nyss. *Op*. t. 2. p. 977.

الذي ولدته، فأعتقتهم من العري الروحي].

(القديس نيلُس – الناسك وأسقف أنقرة – مات سنة ٤٣٠م).

+ **[لبستِ الفرح والتهليل وتَمَنْطقتِ بالقوة يا ابنة صهيون،**

يا من لبستِ لُباس السمائيين حتى سترتِ آدم بلباس النعمة].

(ثيئوتوكية الأحد / ١٤).

+ **[مريم حازت من النعمة ما يكفيها، ليس فقط لأن تكون بتولاً طاهرة، بل وأيضاً بالقدر الذي يؤهلها (بالشفاعة) أن تمنح البتولية للآخرين الذين من أجلهم قد جاءت].** (القديس جيروم).

ويلاحظ في الصلوات الكنسية أن التوسلات التي يقدمها الشعب أثناء التسبحة أو أثناء القداس تنقسم قسمين:

١ – توسلات للعذراء مريم والملائكة ويوحنا المعمدان، وهذه يُقال لها شفاعة: πρεσβεια. «اشفعي فينا أيتها العذراء، اشفعوا فينا أيها الملائكة، اشفع فينا يا يوحنا الصابغ السابق ... لكي يغفر الله لنا خطايانا»، أو «بشفاعاتهم يا رب اغفر لنا خطايانا».

٢ – توسلات لباقي القديسين جميعاً ويُقال لها طلبات: τωβϩ اطلبوا عنّا لكي يرحمنا الله، أو بصلواتهم يا رب اغفر لنا خطايانا ...

ومن هذا يتبين اتجاه العقيدة الأرثوذكسية في الشفاعة، إذ أن الكنيسة تعتمد في نوع توسلها للشفاعة بالأشخاص على مقدار تزكية الله لهم، فمريم العذراء شهد لها الملاك، والملائكة ذكر الإنجيل أنهم أرواح مُرسَلة لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص، ويوحنا المعمدان شهد له المسيح أنه لم يقم بين المولودين من النساء مَن هو أعظم من

يوحنا. لذلك فهؤلاء تتشفع الكنيسة بصلواتهم عنّا بأكثر دالة، أمّا بقية القديسين فالكنيسة تطلب مؤازرة صلواتهم وحسب.

ولكن سواء كانت الصلاة تشفُّعاً بشخص العذراء مريم أو الملائكة أو يوحنا المعمدان، أو كانت مجرد طلب المؤازرة بالصلوات لدى بقية القديسين، فالكنيسة الأرثوذكسية تؤمن أنه لا يمكن أن يكون أي أحد وسيطاً بين الله والناس غير يسوع المسيح (١ تي ٢:٥) المعتبَر وحده رئيس كهنة الخيرات العتيدة وذبيحة الفداء الوحيدة الذي بدمه مغفرة الخطايا، وليس اسم آخر تحت السماء غير اسم يسوع المسيح به ينبغي أن نخلص (أع ٤:١٢). إن مريم العذراء قديسة، ويوحنا المعمدان قديس، وكافة الملائكة المباركين معتبرون قديسين، وكذلك الشهداء وبقية القديسين، ولكن يسوع المسيح هوالقدوس وحده، قدوس القديسين!

وكل قديس إنما يتقدَّس من الله ولا يستطيع أن يقدِّس أحداً، أمّا الرب القدوس فهو وحده الذي يقدِّس ويبرِّر كل أحد.

وكل صلاة حقيقية هي مقدَّمة إلى الله الآب في شخص يسوع المسيح بالروح القدس. ولكن لأن يسوع المسيح دعا قديسيه المختارين لكي يكونوا كهنة معه ليملكوا في مُلكه، أي على الكنيسة كمن لهم عمل رسمي وسلطان حسب تعبير سفر الرؤيا: «ورأيت عروشاً فجلسوا عليها **وأُعطوا حُكماً**، ورأيت نفوس الذين قُتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله ... **عاشوا وملكوا مع المسيح** ... **سيكونون كهنة لله والمسيح وسيملكون معه** ...» (رؤ ٢٠:٤–٦)؛ لذلك فالكنيسة الأرثوذكسية إذ تطلب مؤازرتهم، فهي إنما تطلب حقاً لها عندهم بصفتهم «كهنة لدى الله الآب والمسيح»، وبذلك فهي لا تخرج قط عن دائرة الإنجيل والحق!!

أمَّا العذراء فتقول الكنيسة إنها «**ملكة**» قامت عن يمين الملك، وليس هذا مجرد لقب فخري، بل إشارة إلى مسئولية وعمل، باعتبار أن العبد الأمين أقامه الرب على عشر مدن؛ أمَّا الأم الأمينة فأقامها على الكنيسة.

سابعاً: تكريم العذراء مريم

من كل ما تقدَّم يتبين بوضوح أن ليس للعذراء مريم استعلان خاص غير استعلان المسيح تجاه البشرية، ولا هي تطالبنا بعبادة دون عبادة المسيح، ولا هي منوطة من قِبَل المسيح أن تدخل كنائبة عنه لتتعامل معنا، لأن النص الذي حددته هي صريحٌ: «مهما قال لكم (هو) فافعلوه.» (يو ٢: ٥)

وهكذا يظهر خطأ الألفاظ التي اندسَّتْ حديثاً خلسة في كتبنا الطقسية، سواء في الأجبية أو التسبحة السنوية أو الكيهكية، التي تصوِّر العذراء مريم كأقنوم إلهي وتدعوها مخلِّصة البشرية ورجاءنا الوحيد ومنعِمة على الناس وغافرة للخطية وفاتحة باب الفردوس وغالقة باب الجحيم، لأن هذه كلها أعمال قام بها الأقنوم الإلهي الثاني بمفرده فقط.

وهذه الألفاظ لم تَرِدْ قط في الثيئوتوكيات الأصيلة ولا في كتابات الآباء الأوائل على وجه الإطلاق، فهي دخيلة على تقليدنا وتعتبرها الكنيسة عبئاً على الإيمان الأرثوذكسي وتحميلاً على العقيدة واللاهوت والعبادة بما لا تطيقه الروح المتأصلة فينا.

ومهما اتخذت هذه الألفاظ من أشكال تقوية واعتبارات وعبادات لدى الكنائس الأخرى، فهي تظهر في كنيستنا بوضوح أنها «زيادات» لا يمكن أن تدخل في صميم الإيمان ولا يحسبها المؤمن أنها «ضرورة» بأي شكل من الأشكال.

+ كنيستنا تقدِّم السلام للعذراء بخشوع كثير واحترام كما قدمه لها الملاك ولكن بغير عبادة.

+ كنيستنا تُكرم العذراء كأم الإله تكريماً يفوق كل كرامة لأي ملاك أو رئيس ملائكة وفوق الشاروبيم والساروفيم أيضاً، ولكن تكريمنا لها يحدده قولها: «هوذا أنا أمة (عبدة) الرب». فهي في تقليدنا «عبدة وأم». فكأم الإله نكرمها ونعظمها جداً ونتشفع بها، وكعبدة لا يمكن أن نعبدها.

+ كنيستنا تمجِّد العذراء لا «كملكة السماء» **تجلس بمفردها**، ولكن كملكة **تقف** عن يمين الملك: «قامت الملكة عن يمين الملك»، حيث الوقوف لا يؤهلها للمساواة كما في حالة المسيح حينما جلس عن يمين أبيه.

كذلك أليصابات لم تطوِّب العذراء لشخصها كنسيبة لها، ولكن بسبب ثمرة بطنها: «من أين لي هذا أن تأتي **أم ربي إليَّ**».

من أجل ذلك يتمسَّك التقليد في الأيقونة القبطية أن لا تُرسم العذراء بمفردها قط، بل يحتِّم التقليد أن تُرسم العذراء حاملة للمسيح على ذراعها الأيسر «قامت الملكة عن يمين الملك»، ولا تقبل الكنيسة أن تقدِّم تمجيداً للعذراء بشخصها بمفرده، ولكن تمجدها **كعذراء وكأم معاً**.

+ الكنيسة ترى أن «مجد» أم الإله مجد مُكتسَب بسبب أمومتها وليس طبيعياً، لذلك لا تقدمه في شكل عبادة وإنما في صورة تكريم فائق.

+ الكنيسة ترى أن نصيب مريم في استعلان المجد العتيد سيكون غير منفصل عن جسد المسيح السري الذي سيجمع البشرية المختارة كلها معاً كإنسان كامل رأسه المسيح، غير أن نصيبها سيكون ممتازاً بالضرورة وعلى كل وجه إنما غير منفصل عنَّا.

+ كنيستنا تقدم **البخور لله** أمام أيقونة مريم العذراء الحاملة يسوع الطفل، لأن مريم أصبحت هي الهيكل الجديد الذي احتوى الحَمَل المقدَّس المُعَدَ للذبيحة(٣٨)، لذلك أصبح لائقاً أن يُقدَّم **أمامها بخورٌ لله** لكي تشفعه هي بصلاتها عنَّا، فيرتفع البخور أمام الله حاملاً صلواتنا وصلواتها. وفي هذه الكلمات نجد أن العلاقة بين العذراء مريم وبين الذبيحة الإلهية علاقة ذات توجيه:

[هذا هو الذي أخذ جسداً من العذراء ...،

هذا هو الحمل الذي صار أخرس وأصم،

هذا هو الحمل الذي ذُبح،

هذا هو الذي وُلِد من مريم النعجة الحسنة].

(ميليتيو أسقف كنيسة ساردس).

[لا أُخطىء في شيء إذا دعوتكِ المجمرة الذهبية،

لأن تلك كان يُرفع فيها البخور المختار أمام الأقداس،

فيصفح الله هناك عن خطايا الشعب من قِبَل المحرقات ورائحة البخور،

وأنت أيضاً يا مريم حملتِ في بطنكِ الذي أصعد ذاته ذبيحة مقبولة].

(ثيئوتوكية الأحد / ٦).

[من قِبَل مريم ابنة يواقيم عرفنا الذبيحة الحقيقية التي لمغفرة الخطايا].

(ثيئوتوكية الأحد / ١٤).

---

(٣٨) انظر القطعة الأُولى من ثيئوتوكية الأحد.

افرحي يا مريم

مقام العذراء مريم في الكنيسة الأرثوذكسية فوق أنه يحتل مكانة شعبية كريمة جداً فهو أيضاً مصدر فرح للكنيسة كلها. فشخصية العذراء القديسة محبوبة للغاية، وهذا يبدو واضحاً في كل المناسبات التي تلتئم فيها الكنيسة لتُعيِّد لأي ذكرى من ذكرياتها المقدسة(٣٩)، حتى صومها الذي تفرضه الكنيسة تذكاراً لها وتيمُّناً بشفاعتها وتكريمها لجهادها، نجد أن الشعب على كافة طبقاته يظل مبتهجاً به بالرغم من تقشُّف الكثيرين أثناءه. بل وفي تذكار نياحتها لا يَكفُّ الشعب عن فرحه وتهليله لها بالألحان المبهجة التي ترفع النفس إلى شركة الروح مع القديسين المكللين. والشعب في ابتهاجه بالعذراء القديسة مريم يمثل صورة صحيحة واقعية لحقيقة سماوية استُعلنت مرة جهاراً برؤيا وشهادة عندما ظهرت جوقات الملائكة وجمهور جند السماء يهللون فوق العذراء الحاملة لطفلها الإلهي في بيت لحم. فلأول مرة يخرج

---

(٣٩) الكنيسة الأرثوذكسية تُعيِّد للعذراء ستة أعياد في السنة:

١ - عيد ميلادها: أول بشنس. ٢ - عيد دخولها الهيكل: ٣ كيهك.

٣ - عيد نياحتها: ٢١ طوبه. ٤ - عيد ظهور جسدها: ١٦ مسرى.

٥ - عيد بناء أول كنيسة على اسمها: ٢١ بؤنة.

٦ - عيد ظهورها في كنيستها بالزيتون يوم ٢ أبريل سنة ١٩٦٨م، يوافق يوم ٢٤ برمهات من كل عام.

الملائكة عن صمتهم وتصبح الأرض مسرحاً طاهراً لائقاً لظهورهم مسبِّحين وفرحين ومبشرين «بفرح عظيم» و «سلام على الأرض» و «سرور في الناس».

الكنيسة الأرثوذكسية لا تزال تعيش هذه «البشرى» مع العذراء على صعيد الواقع الحي، وكأنما الملاك المفرح جبرائيل لا يزال مُرسَلاً من عند الله حاملاً للعذراء والعالم كله بشارة **رسالة الخلاص والرجاء الأبدي**، كما لا تزال الكنيسة تعيش مع جمهور الجند السمائي بُشْرَى «الفرح العظيم» بميلاد الطفل يسوع وهو على صدر العذراء، لأن الذي كان، ما يزال كائناً ولن يزول!

لقد خصَّتها الكنيسة بلحن مُفرح يصوِّر هذه البشارة تصويراً مبدعاً، ليس بالألفاظ وحسب وإنما بالنغمة المفعَمة سروراً:

«افرحي يا مريم العبدة والأم،

لأن الذي في حِجْرِكِ الملائكة تسبِّحه،

الشاروبيم يسجدون له باستحقاق،

والسارافيم، بغير فتور ...

ليس لنا دالة عند ربنا يسوع المسيح،

سوى طلباتكِ وشفاعتكِ يا سيدتنا كلنا والدة الإله ...»

ويُسمَّى هذا اللحن بالـ «أسبزموس» ασπασμος ومعناه: «تحية حارة»، أو يُترجَم أيضاً «سلام العناق»، لأن موضعه الأصلي هو بعد صلاة الصلح مباشرة حينما يُنادي الشماس «أسبازِسْتا»: «قبِّلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة». ويُلاحَظ أن المناسبة بين هذا اللحن وبين القبلة الرسولية مُبدعة في الحقيقة! لأنه حينما يتم الصلح والسلام بين الشعب تهتف الكنيسة للقديسة العذراء أن افرحي يا مريم، باعتبارها أماً، وينبغي أن تفرح لأن الصلح قد تمَّ بين أولادها!

وكذلك تقدِّم الكنيسة للعذراء لحناً آخر مفرحاً تسميه «السلام لمريم الملكة»، ومكانه الأصيل هو مع «لحن البركة» الذي يُقال بعد صلاة باكر عندما يكون هناك تقديم للحمل.

ولحن البركة يُعتبر بمثابة تنبيه للشعب كأنما المسيح قد ظهر، وذلك باعتبار أن تقديم الحمل أمر واقعي!!! لذلك فالخورس يهتف للثالوث الأقدس كأنه متجلي مع السجود له «ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ»، كما يهتف للمسيح كأنه واقف «يا ملك السلام». ومع لحن البركة في بعض المناسبات يخاطب الخورس الله – كما خاطبه سمعان الشيخ لمَّا أمسك بالطفل يسوع **من على ذراعي أمه القديسة** – بهذا اللحن: «قد حان الوقت أطلق الجميع» ⲁⲡⲓⲛⲁⲩ ϣⲱⲡⲓ باعتبار أن الكنيسة وقت تقديم الحمل قد رأت «خلاص الرب». ومن هذا يتضح أن وضع لحن العذراء «السلام للملكة» في هذه المناسبة يفيد أن الكنيسة ترى بالروح العذراء القديسة متجلية بجوار الحَمَل الإلهي!!

وهنا نلاحظ أنه بعد أن يُقال «يا ملك السلام»، يُقال لحن العذراء «السلام لمريم الملكة»، باعتبارها «الملكة القائمة عن يمين الملك» والتي لا بد تظهر بظهوره وتُستعلن في مجده، لذلك فنغمة سلام الملكة هي نفس نغمة سلام الملك(٤٠):

- السلام لمريم الملكة،
- الكرمة غير الشائخة التي لم يُفلِّحها أحد، ووجد فيها عنقود الحياة،

(٤٠) هذا التعبير الموسيقي أخذناه عن المعلّم ميخائيل الكبير. ويُسمى هذا اللحن «بارالكس» ⲡⲁⲣⲁⲗⲗⲁⲝ، ومعناه لحن مكرر بالتبادل الذي يعني مضمون نغمة المارش الذي يسير عليه الجيش.

- ابن الله تجسَّد بالحقيقة من العذراء وولدته وخلصنا وغفر لنا خطايانا،
- وجدتِ نعمة أيتها العروس،
- كثيرون نطقوا بكرامتكِ لأن كلمة الآب أتى وتجسَّد منكِ
- أية امرأة على الأرض صارت أماً لله سواكِ،
- وأنتِ امرأة أرضية صرتِ أُماً للباري،
- نساءٌ كثيرات نِلن كرامات وفُزنَ بالملكوت، لكن لم يبلغن كرامتكِ،
- أيتها الحسنة في النساء!
- أنت هي البرج العالي الذي وجدوا فيه الجوهر عمانوئيل الذي أتى وحل في بطنكِ،
- فلنكرم بتولية العروس التي بغير شر النقية القديسة في كل شيء والدة الإله مريم،
- ارتفعتِ أكثر من السماء، وأنتِ مكرَّمة أكثر من الأرض وكل المخلوقات، لأنكِ صرتِ أماً للخالق،
- أنتِ بالحقيقة الخدر النقي الذي للمسيح العريس حسب الأصوات النبوية،
- اشفعي فينا يا سيدتنا كلنا والدة الإله مريم أم يسوع المسيح ليغفر لنا خطايانا.

أما في تسابيح الكنيسة اليومية التي تقدِّمها الثيئوتوكيات الخاصة بالعذراء فنجد مقاطع كثيرة مفعمة بالفرح والسرور تُشيد بصفاتها ومواقفها الباعثة على المسرة. وقد انتخبنا منها هذه الأرباع:

ثيئوتوكية الأربعاء:

[عظيمة هي الكرامة التي استحققتها يا غبريال الملاك المبشر.

ووجهك يتلألأ فرحاً ...

أعلنت ميلاد الله الذي أتى إلينا ...

قائلاً افرحي(٤١) يا ممتلئة نعمة الرب معكِ].

(القطعة ٤ / الربع ١و٢و٣).

[عيد بتولي يدعو لساننا اليوم

لكي نمدح والدة الإله مريم].

(القطعة ٥ / الربع الأول).

[بهذا نفرح ونرتل مع الملائكة القديسين بتهليل،

قائلين المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة].

(القطعة ٥ / الربع ١١و١٢).

ثيئوتوكية الثلاثاء:

[السلام لوالدة الإله تهليل الملائكة].

(القطعة ٣ / الربع الأول).

ثيئوتوكية السبت:

[تفرح معك الخليقة كلها صارخة قائلة:

السلام لكِ يا ممتلئة نعمة الرب معك]. (القطعة الأُولى / الربع الثاني).

ثيئوتوكية الأربعاء:

[تكلّموا من أجلك بكرامات يا مدينة الله

لأن مسكن جميع الفرحين فيك...]. (القطعة الثانية / الربع الأول).

---

(٤١) يلاحظ في اللغة القبطية أن كلمة «سلام» تفيد أيضاً معنى «فرح».

والمُلاحَظ أن الثيئوتوكيات تتمشّى تماماً مع الفكر الآبائي الأول بكل دقة، فنجد نفس هذه المرادفات لهذه الأرباع في القداس المطوَّل للقديس باسيليوس الذي يستخدمه الروم حتى اليوم:

[أيتها الممتلئة نعمة هوذا الخليقة كلها فرحة بسببكِ

وكل جماعة الملائكة وجنس البشر معاً](٤٢).

[أنتِ فرح الحزانى،

أنتِ نصير المتألمين بالظلم، وسلوى المريض.

حِمى الخائفين وعون اليتامى](٤٢).

والقديس أُغسطينوس أيضاً يقول:

[«الأم صهيون تقول إن إنساناً قد صار فيها وهو العلي الذي أسسها»، مَنْ هو العليَ إلاَّ الله؟ والمسيح الذي هو الله قبل أن يولد من مريم أمه سبق فأسسها كما يؤسس مدينة وذلك بأنسال الآباء وبالأنبياء](٤٣).

أمّا سر فرح الخليقة كلها بالعذراء القديسة مريم ومسرة الملائكة وبني البشر بها فهو في الحقيقة سر الشركة في الفرح الواحد الذي صار لنا بالمسيح الذي ملأ السماء والأرض، الذي أول من أحسه وتقبَّله هي العذراء نفسها.

«تُعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي»

* * *

---

(42) *Orthodox Ethos* by Philippou.

(43) St. Augustin *City of God* xvii. 16.

يا أُمنا القديسة

+ اشفعي في بلادنا العزيـزة، مصـر الـتي اختارهـا الله لتكـون ملجـأ سـلام لـكِ وليسوع الطفل عندما بيَّت هيرودس ملك اليهود النية لقتله ...

+ اذكري شعب مصر الذي رحَّب بكِ وبـالطفل الإلـه، واطلبي لنـا أن يتحقـق الرخاء والسلام في ربوع بلادنا ويعود الفلسطينيون إلى أرض آبائهم.

+ واطلبي حكمة ومشورة ناجحة لعزيز مصر ورب أسرتها ...

+ واسألي من المسيح سـلاماً وبنيانـاً للكنيسـة ... وللجـالس علـى كرسـي مـار مرقس.



تطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٥٠ "أ" شارع شبرا ـ ت: ٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ١٣ شارع الشهداء ـ المنشية ـ ت: ٤٨٤٠١١٠

تتناول سلسلة دراسات في التقليد الكنسي شرح المضمون الروحي للتقليد الكنسي بكل فروعه، حتى يكون المؤمن على بينة من أصالة تقليد الكنيسة الذي يمارسه ويحيا فيه، وذلك بأسلوب مبسّط سهل وواضح.

وقد ابتدأت هذه السلسلة بصدور كتاب: «التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي»، حيث تناول معنى التقليد في الكنيسة، وتاريخ نموه إلى أن وصل إلينا في صورته المتكاملة اليوم.

+ وها هو كتاب «العذراء القديسة مريم الثيئوتوكس» بين يديك يشرح باستفاضة المنهج الكنسي الأرثوذكسي لإبراز شخصية العذراء من واقع الإنجيل وما تحتفظ به الكنيسة من نصوص وعقائد إيمانية لتكريم العذراء وشرح صفاتها كما تسلمته من الرسل والآباء الأوائل، ومن واقع الصلوات والتسابيح والعبادة اليومية، وعلى الأخص الثيئوتوكيات، والتي حوت من التشبيهات والرموز من العهد القديم ما يمكن أن يرفع قلب الإنسان إلى عمق اللاهوت وبالتالي يدفعه إلى التسبيح والتمجيد عن ضرورة وإلحاح.

صدر من هذه السلسلة:

+ التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي + الإفخارستيا والقداس

+ الصليب المقدس + التسبحة اليومية ومزامير السواعي

+ العذراء القديسة مريم الثيئوتوكس.

الثمن ٢٥٠ قرشاً